

التحيز اللغوي مظاهره وأسبابه*

حمزة بن قبلان المزيني

* هذا البحث كان محاضرة ألقاها الدكتور

المزيني في النادي الأدبي الثقافي بمكة ، بتاريخ

1413/8/16هـ، الموافق 7-2-1993م..

ظلت اللغة واحدة من الخصائص الإنسانية التي أثارت انتباه الإنسان طوال العصور ، فكان اكتساب الإنسان لها وتنوعها من مجتمع إلى مجتمع آخر ، ومقارنة تلك الأنواع بعضها ببعض مسائل لم يتوقف الإنسان منذ القديم عن التفكير فيها واقتراح تفسيرات لها ؛ ومن اللافت للنظر أن تفسيرات هذه الظواهر كثيراً ما تتشابه في الحضارات المختلفة ؛ فنحن نجد في كل حضارة من يرى أن لغة تلك الحضارة هي أول اللغات نشأة ، وأن اللغات الأخرى لم تنشأ إلا متأخرة نتيجة لعقاب إلهي ، وأن تلك اللغة تتفوق على ما عداها ، فهي الأجل والأكمل والأكثر منطقية إلى غير ذلك من الصفات المميزة .

وسوف أتناول في هذا البحث مسألة التحيز اللغوي عارضاً نماذج له في حضارات مختلفة ، قديمة وحديثة ، وسوف يبين البحث أن هذه النماذج للتحيز اللغوي تنبع من أسباب أعمق ، ومن تلك الأسباب : العنصرية العرقية ، والتحيز الثقافي ، والجهل بطبيعة اللغة .

وما يعنيني أكثر من غيره في هذا البحث إيضاح أن ما يسود في الثقافة العربية عن تميز اللغة العربية عن غيرها ليس إلا وجهاً من أوجه ذلك التحيز ؛ وبما أنه قد ثبت علمياً أن الاعتقادات والتفسيرات التي تنتج عنه ليست صحيحة ، فإنه ينبغي تخلص دراسة اللغة العربية منها ، كما أنه لا يمكن للبحث اللساني في اللغة العربية

أن يتقدم إلا بالتخلي عنها ومقاربة اللغة العربية بوصفها لغة إنسانية تتصف بما تتصف به اللغات الإنسانية الأخرى ، ويجري عليها من القوانين ما يجري على غيرها .

مقدمة

يشمل التحيز اللغوي أنواعاً كثيرة : فمنه النظر إلى لغة معينة أنها أقدم اللغات وجوداً وأنها أكثر اللغات منطقية في نظمها ، وأنها أجمل وأكفأ في التعبير مما عداها . كما أنه يشمل أن مستوى من مستويات اللغة المعنية يتميز عما عداها من المستويات في تلك اللغة المعنية بالصفات التي ذكرنا . وقد شمل أن نطق صوت معين أو خصيصة معينة في لغة ما أجمل مما يقابله في المستويات الأخرى لتلك اللغة أو اللغات الأخرى ، ويشمل أيضاً أن كلام فئة معينة من متكلمي لغة ما يتميز على كلام الفئات الأخرى ، وبالجملته فإنه لا حد لأنواع التحيز ، كما أن وجوده ليس مقصوراً على فترة تاريخية معينة ولا هو مقصور على متكلمي لغة واحدة ، بل هو ظاهرة موحدة في كل المجتمعات وفي كل اللغات وفي كل العصور .

ولا أريد في هذا البحث أن أستقصي وجود التحيز اللغوي في اللغات كلها بل سوف أقتصر على بحثه في الحضارة الأوروبية والحضارة العربية الإسلامية ، لكنه يحسن من باب التدليل على وجوده في حضارات أخرى أن أورد المثال التالي :

يقول بيتر فارب إن كثيراً من الجماعات اللغوية تشعر بأن لغتها هي الأفضل أو أنها هي اللغة الإنسانية الأصل ، ويذكر من تلك الجماعات " الشامولاس " Chamulas وهي جماعة لغوية في المكسيك ،

و" الروندي " Rundi في إفريقيا ، و" التشكتاو " Chictaw وهي قبيلة من قبائل الهنود الحمر كانوا يسكنون في جنوب ولاية لويزيانا في أمريكا ، فيرى التشكتاو مثلاً أن لغتهم كانت أقدم اللغات . وتأتي قصة الخلق وتمايز اللغات عندهم على النحو التالي :

قبل أجيال عديدة مضت أظهر " أبا " Aba وهو الروح الطيبة المتعالية رجالاً كثيراً كلهم من قبيلة التشكتاو الذين كانوا يتكلمون لغة التشكتاو ويفهم بعضهم بعضاً . وقد برز " أبا " هؤلاء من طين أصفر أخذ من صدر الأرض ، ولم يسبق أن وجد قبلهم أحد من الرجال . وفي أحد الأيام اجتمع رجال التشكتاو وأخذوا في التفكير في ماهية السحاب والسماء . واستمروا في التفكير والنقاش فيما بينهم حتى استقر أمرهم على الصعود إلى السماء لاكتشاف ما فيها . لذلك فقد جمعوا أحجاراً كثيرة وبدؤا في بناء برج خططوا له أن يلامس السماء، وفي تلك الليلة هبت رياح عاتية من السماء فهدمت البرج وتناثرت أحجاره فوقهم . غير أن الرجال لم يقتل منهم أحد . وفي الصباح خرجوا من تحت الأنقاض وأخذ بعضهم يكلم بعضاً ، غير أنهم شدهوا وفوجئوا وأصابتهم الحيرة بسبب أنهم أصبحوا يتكلمون لغات متعددة بحيث لم يستطيعوا فهم بعضهم بعضاً . ومنذ تلك الحادثة استمر بعضهم يتكلم اللغة الأصلية لغة التشكتاو ومن هؤلاء جاءت قبيلة التشكتاو الحالية . أما الآخرون وهم الذين لم يستطيعوا الفهم عن هؤلاء فقد بدأوا يتقاتلون ، وفي النهاية تشتتوا . أما التشكتاو فأصبحوا هم الأصل⁽¹⁾ .

وتماثل هذه القصة قصة برج بابل الشهيرة التي نجد صداها في بعض المصادر العربية .

ومسألة التحيز اللغوي يمكن أن ينظر إليها على أنها مثال لما

يطلق عليه تشومسكي " مشكلة أورويل " نسبة إلى جورج أورويل الروائي الأيرلندي صاحب الرواية الشهيرة "1984". ويميز تشومسكي بين " مشكلة أورويل " ومشكلة أخرى هي " مشكلة أفلاطون ". فتعني " مشكلة أفلاطون " أنه على الرغم من قصر حياة الفرد فإنه يعرف أموراً كثيرة من غير أن يكون لديه أدلة واضحة عليها . ومن ذلك أن الطفل يستطيع اكتساب اللغة في فترة وجيزة لا تزيد عن أربع سنوات مع أن ما يسمعه من كلام المحيطين به لا يمثل إلاّ جزءاً ضئيلاً منها ، كما أن ما سمعه ليس مثلاً صالحاً لها في كثير من الأحيان . أما مشكلة أورويل فنقيضتها إذ أننا لا نعرف إلاّ شيئاً ضئيلاً عن بعض الأمور مع أن الأدلة التي يمكن أن تعيننا على الفهم والمعرفة غنية جداً ، ويمثل تشومسكي لذلك بالأنظمة السياسية التي يمكن بطريق مباشر أو غير مباشر أن تغرس بعض الأفكار والمفاهيم المغلوطة في أذهان الناس على الرغم من أنه يمكن وببساطة اكتشاف زيف تلك المفاهيم ، غير أن الناس قلّما يصرفون انتباههم إلى تلك المغالطات فتظل سائدة لا تساءل⁽²⁾.

فالتحيز اللغوي يمكن اكتشاف زيفه بكل بساطة ، وذلك عن طريق النظر في طبيعة اللغات الإنسانية ومقارنتها بعضها ببعض ، وكذلك فيما يخص اللغة العربية بالنظر في المصادر العربية نفسها التي تبين أن كثيراً من المعتقدات الشائعة عنها ليس صحيحاً .

وللتدليل على زيف التحيز اللغوي فسأعرض لمظاهره في الدراسات الغربية أولاً ، وسوف نجد أن كثيراً من مظاهره كان مدفوعاً بالتعصب العرقي الذي كان سائداً في أوروبا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، كما أنني سوف أعرض لمظاهره في المصادر

العربية القديمة . وسوف يتبين أنه وجد نتيجة للسجل القومي الذي ساد خاصة في العصر العباسي . كما سيتبين أن المصادر العربية نفسها فيها من الأدلة ما يكفي لبيان أن ذلك التحيز لا حقيقة له . كما سيتعرض البحث لدراسة هذه الظاهرة في الدراسات المتعلقة بالعربية في العصر الحاضر . وسوف نجد أيضاً أن أسبابها ليست علمية . فهي مدفوعة إما بالرغبة في الخط من اللغة العربية والعرب أو بالدفاع عنهما .

التحيز اللغوي في الدراسات الغربية :

شابه الغربيون غيرهم من الأمم في مظاهر التحيز اللغوي ، غير أنهم لم يكتفوا بالشكل العام لهذه القضية . فبدلاً من الزعم المجرد بتفوق لغاتهم على غيرها فقد أخذوا في القرون الأخيرة بالتنظير له واستخدام منجزات العلم في التدليل على صحة دعاواهم .

وقد ظهر مؤخراً كتاب جيد عن هذا الموضوع في أوروبا بعنوان : لغات اللجنة : العنصرية والدين والفلسفة في القرن التاسع عشر . ومؤلفه هو موريس أولندر ، ونشر بالفرنسية سنة 1989م وترجمه إلى الإنجليزية آرثر جولد هامر ، ونشرته دار النشر التابعة لجامعة هارفارد في سنة 1992م⁽³⁾ . ومع أن المؤلف يذكر أن هذا الكتاب ليس إلا صورة أولية لبحث أوسع يقوم به عن هذه القضية . فإنه يعطي صورة واضحة عنها في التفكير الأوروبي . وسوف أعتمد اعتماداً يكاد يكون كلياً على كتاب أولندر بل إنني سوف أخلص كثيراً من المعلومات والآراء التي جاء بها وأترجم بعض المواضع منه .

كان الرأي السائد في أوروبا في العصور الوسطى أن العبرية

هي اللغة التي تكلمها آدم في الجنة وهذه هي النظرة الكنسية الرسمية. وكان هناك من يقول إنها السريانية وهناك من يقول إنها الكلدانية. كما كان هناك من يعارض هذه الآراء ويجحد أن يكون الله علم الإنسان أي لغة.

أما في عصر النهضة فقد كان أصل اللغة الإنسانية واحداً من المواضيع التي اهتم بها الباحثون اهتماماً كبيراً. ومع ظهور الوعي القومي فقد أخذت هذه القضية وجهاً جديداً إذ حاولت كل أمة في أوروبا أن تبرهن على أن لغتها، هي، كانت اللغة التي تكلمها آدم في الجنة. ولذلك نجد أن بعضهم قال بأنها الفرنسية، وقال آخرون أنها الألمانية، كما قال آخرون بأنها السويدية. كما ارتبطت هذه الآراء بالبحث عن المكان الذي كانت فيه الجنة. وفي الفترة التي تلت عصر النهضة اكتشف الأوروبيون أن بين لغاتهم كثيراً من التشابهات مما حدا بهم إلى القول بوجود أصل مشترك تنتسب إليه هذه اللغات كلها. وقد اقترن البحث عن هذا الأصل المشترك بالبحث عن المكان الأول الذي جاء منه متكلمو هذه اللغات. وقاد هذا البحث إلى مقارنة هذه اللغة المشتركة بالعبرية. وكان من نتيجة ذلك أن بدأ الأوروبيون يزيحون اللغة العبرية عن المكانة التي كانت تحتلها وإحلال هذه اللغة المفترضة مكانها، وكان من نتيجة ذلك أيضاً أن صاغ الأوروبيون مصطلحات جديدة لتمييز الأسر اللغوية بعضها عن بعض: فلغات أوروبا تنحدر من لغة واحدة سميت الآرية، أما العبرية والعربية وغيرهما من اللغات الشبيهة فقد سميت السامية.

وكان هذا البحث يرتبط أيضاً بالبحث عن المكان الذي كانت فيه الجنة، فقد رأى هردر (1744 - 1803) مثلاً أنها لابد أن تكون في شمال الهند على ضفاف نهر الجانج. ولما كان هذا البحث

محملاً بالأفكار العلمانية التي سادت في عصر الأنواع كما يسمى أي القرنين السابع عشر والثامن عشر فقد بدأ الأوروبيون ينظرون إلى الكتاب المقدس نظرة أخرى . فقد رأوه كتاباً أسطورياً مكتوباً بلغة شعرية فائقة الجمال . كما نظروا إليه من ثم على أنه يمثل تصور الساميين لبداية تاريخ الإنسان ، وكان هذا الرأي يتأسس على فكرة شاعت في ذلك الوقت عن الارتباط اللازم بين الفكر واللغة . فاللغة مرآة للفكر ، وهي التي تمثل روح الجماعة التي تتكلمها . فنظرة الأمة المعينة إلى الكون محكومة بتركيب لغتها التي تنسق الكون على صورة معينة . فالكتاب المقدس إذن لا يصور وحياً إلهياً بل تصوراً عبرياً سامياً عن الكون أملتته اللغة العبرية ، مع أنه لا خلاف على جمال هذا التصور .

وقد أنتجت المقارنات اللغوية بين لغات أوروبا علماً جديداً هو علم اللغة المقارن الذي أصبح له تقنياته المميزة . وباتصال أوروبا عن طريق الاستعمار بحضارات أخرى أخذ العلماء بتطبيق أفكار علم اللغة المقارن على اللغات التي اتصلوا بها . على أن أكبر حدث كان اكتشاف وليم جونز (1746 - 1794) للصلة بين اللغة السنسكريتية وهي إحدى اللغات الهندية المقدسة القديمة ، واللغتين اللاتينية والإغريقية . وقد أشعل هذا الاكتشاف خيال الأوروبيين في مجالات عديدة ، خاصة في دراسة اللغة . فقد استطاعت أوروبا بهذا الاكتشاف أن تدفع تاريخها نحو القدم مئات السنين . كما مكنتها من الخروج من ضيق أوروبا إلى مساحة تشغل جزءاً كبيراً من آسيا بالإضافة إلى أوروبا . وقد أدخل هذا الاكتشاف تعديلاً كبيراً على الأفكار الخاصة باللغة القديمة . فكان أن اشتغل الباحثون بالبحث عن الجذور اللغوية والتاريخية للأصل اللغوي المشترك الذي يشمل لغات

الهند ولغات أوروبا . وكان من نتيجة ذلك أن اقترح الباحثون أصلاً واحداً لها أسموه فصيلة اللغة الهندية الأوروبية .

ولما كان للسكسكريتية كتاب مقدس هو القيدا فقد أخذ الأوروبيون هذا الكتاب بديلاً للكتاب المقدس يرون فيه تاريخهم ، كما أخذ التنوع الكبير للغات الهندية الأوروبية والمساحة الشاسعة التي تشغلها : من الهند شرقاً إلى الحدود الغربية لأوروبا على أنه دليل على قدرة هذا العرق على الانتشار مكتسحاً كل الشعوب التي تقف في طريقه . ويقارن هذا بإخلاق الساميين إلى رقعة صغيرة من غرب آسيا . كما أن الانتشار الواسع أتاح للجنس الآري تنوعاً كبيراً في الأديان واللغات ، أما الجنس السامي فاقصر على تنوع بسيط بين لغاته .

أما الصلة بين العرقين فقد حسمت منذ أمد طويل . فقد افترقا في فترة مبكرة من التاريخ ونهج كل واحد منهما طريقاً مميزاً منذ ذلك الحين ، وقد حددت العناية الإلهية وظيفة كل واحد منهما ، فقد استطاع الآريون تسخير الطبيعة واستغلال الزمان والمكان، واختراع الأساطير ، والعلم والفن ، أما الساميون فإنهم انطووا على عقيدتهم التوحيدية .

هذه إذن هي الظروف التي نشأت فيها دراسة اللغة في أوروبا: فهي ظروف لعب فيها التحيز العنصري دوراً كبيراً نتيجة لما رآه الأوروبيون منجزات للجنس الآري في العلم . ولذلك فقد اصطبغت دراسة اللغة بهذه العوامل العنصرية مما جعل النتائج التي توصلوا إليها أبعد ما تكون عن الموضوعية .

ودليلاً على هذه التوجهات العنصرية في دراسة اللغة يفصل

أولندر القول في آراء عدد كبير من الفلاسفة واللغويين الأوروبيين خاصة في القرن التاسع عشر ويحلل أعمالهم ويكشف حقيقة أن كثيراً مما قالوه كان مدفوعاً بتحيزاتهم إلى لغاتهم وحضاراتهم وتاريخهم .

ومن تلك الآراء ما كان يراه الفيلسوف الألماني هيدر ، فعلى الرغم من شغفه بالعبرية فهو يقول : " إنما فقيرة في التجريد لكنها غنية في تمثيل المحسوسات " ⁽⁴⁾ . ففقرها في التجريد خاصة من خصائص جمالها القديم الرائع ، كما أن بساطة أسلوبها الشعري دليل على جماله . كما كان يرى أن المنطق يحتاج إلى التجريد كما أن التجريد يحتاج إلى لغة قادرة على البيان وبذلك تكون اللغة وسيلة المنطق عند بني الإنسان .

ولما كان العبرانيون كالأطفال يريدون كل شيء في وقت واحد فإن العبرية عبرت عن الشخص والعدد والزمن والعمل وغير ذلك باستعمالها صوتاً واحداً . كما أنها لا تعبر إلا عن زمنين هما الماضي والمستقبل وهذا ما جعل الوقت فيها يتوقف . وهذه الخصائص هي التي جعلت العبريين يبدعون شعراً صافياً لا يعكره تصرف الأفعال ودلالاتها على تقطعات الزمن ، كما استخلص أن هذه اللغة الشعرية الجميلة لا يمكن لها أن توجد إلا في زمن قديم وجغرافية محدودة . وعلى الرغم من آرائه التي تظهر عدم انتمائه لأشكال التحيز العرقي الشائع في وقته إلا أنه كثيراً ما تصدر عنه بعض الآراء التي يمكن أن تصب في ذلك الهدف . وذلك مثل قوله عن الصينيين ، إنهم على الرغم من قدرتهم على وضع قواعد للتعامل والقوانين فإنهم انتهوا إلى أن يتوقفوا عند مرحلة الطفولة . فنظرة عابرة إلى لغتهم التي تحتوي على أكثر من ثمانين ألف شكل ستؤكد أن هذه اللغة قد أسهمت في إبقاء الصينيين في " أسر الطفولة " ، فهم أحياء متحجرون .

ومن هؤلاء الذين كان لهم أثر كبير في تصنيف اللغات والأعراق جوزف إرنست رينان الذي ترك الدراسة الدينية اللاهوتية مشغولاً بدراسة فقه اللغة المقارن . وقد اتخذ هذا العلم أداة في دراسته للأديان والأساطير والأعراق . فالحضارة العبرية في نظره بدائية وغير قابلة للتطور . بل إن اليهود لم يسهموا في نشر العقيدة التوحيدية لأنه لا يد لهم في اكتشافها وليس لديهم القدرة في استعمالها مخاربة الوثنية .

وكان يرى أن الساميين والآريين على الرغم من القربى التي كانت بينهم في القديم وعلى الرغم من إسهامهم في الحضارة الإنسانية بقدر لا يدانيه أي عرق إلا أن العرق الآري يتميز على العرق السامي بكثير من الخصائص الذاتية التي جعلته يتفوق في أكثر الميادين . فالعائلة اللغوية الهندية الأوروبية تحوي عدداً كبيراً من اللغات وذلك ما يعبر بوضوح عن خصائص مختلفة لأقوام ينتمون إليها كاهنود والفرس والإغريق والألمان ، أما العائلة السامية فتكون من عدد قليل من اللهجات التي ليس بينها إلاّ خلاف بسيط . وكذلك فإن اللغات الهندية الأوروبية كانت عرضة للتغير نتيجة للتنقل والحركة . أما اللغة السامية فبقيت من غير تغير لانحصارها في مكانها الأصلي . وكان يرى أن أي نظرية عن اللغة ليست إلاّ نظرية عن الدين . ولذلك فإن عقيدة التوحيد البسيطة القاسية لم تكن تظهر إلاّ في لغة ملائمة لها ، وتلك اللغة هي اللغة العبرية ، إذ إن هذه اللغة تتميز بنحو جاف طاغ لا يقبل التنوع . كما أن علم اللغة لم يكن ليؤسس على اللغة السامية لهذه الصفات ذاتها ، وإنما أمكن تأسيسه على اللغات الهندية الأوروبية لطواعيتها وتنوعها وغناها . وكان له رأي في الأعراق واختلافها بين البشر ، إذ أكد أن التمييز بين هذه الأعراق غير ممكن الآن من الناحية العضوية لكنه ممكن إذا استبدلنا به اللغة وهي التي تحمل الخصائص التي تتميز بها الأعراق تاريخياً .

وكانت اللغة السامية ملائمة للرسالة التوحيدية القاسية وذلك لطبيعة هذه اللغة ، ويدل على طبيعة اللغة السامية القاسية بظواهر مثل الفعل في اللغة السامية الذي لا يمكن تصريفه ليعبر عن الزمن والجهة ، فبدلاً من التصرف لا نجد فيه إلا عدداً محدداً من المقاطع الأحادية ، وهذه اللغة خالية من النحو ، وخالية من التصرف ، وغير قادرة على إعادة ترتيب مكونات الجملة كما في الجملة الآرية التي تستطيع المحافظة على ترتيب الأفكار معتمدة على تعريف العلاقات النحوية . فلذلك نجد اللغة السامية غير قادرة على تخيل التعددية ، كما أن التعبير عن مظاهر الطبيعة المتعددة غير ممكن فيها . ولبساطة هذه اللغة فقد عجز الساميون عن التجريد والكلام عما وراء الطبيعة والعمل الفكري الخلاق . ولا تصلح هذه اللغة لذلك إلا للشعر وحده وهو ما مهر فيه الساميون .

ولعدم قدرة هذه اللغة على التحدث عن التعدد في الطبيعة لم تكن متكلميها من اختراع الأساطير ، أما اللغات الهندية الأوروبية فقد مكنت متكلميها من اختراع الأساطير وتعدد الرموز وذلك لأنها مكنت متكلميها من غنى التخيل والتصنيف .

ويأتي ماكس مولر (1823 - 1900) فيرى أن الدين ليس نتيجة لغريزة خاصة به ولذلك فإن عقيدة التوحيد عند الساميين ليست نتيجة لمثل هذه الغريزة . وذلك أن الغرائز لا تقبل الاختلاف بين الجنس الواحد . ولذلك فالسمك لا يطير ، والققط لا تصيد الضفادع . وبناء على ذلك فإن العقيدة التوحيدية ليست غريزة عند اليهود وذلك أنهم عبدوا العجل في غياب موسى⁽⁵⁾ كما أنها لو كانت غريزة مقصورة على اليهود لما اعتنقها غير الساميين كالإغريق والرومان . ويرى بدلاً من ذلك أن فكرة الوحدانية بدأت منذ لحظة

الخلق في صورة " وحي بدائي " إذ زود ... الإنسان منذ البداية
بجدس خاص عن الرمز . وفكرة الرمز هذه لم تكن وحدانية أو وثنية ،
غير أنها يمكن أن تكون واحدة منهما تبعاً لتعبير اللغة الإنسانية عنها .
كما أن هذه النفحة ... سميت بأسماء مختلفة وهو ما يمكن أن يعني
أن اللغات الإنسانية تشعبت منذ نفخ هذه الفكرة في الإنسان
البدائي .

وتبعاً لفكرته عن قدرة اللغة على تحديد شكل العقيدة فقد
أخذ يعلل وجود عقيدة التوحيد عند الساميين وعقيدة الوثنية والتعدد
لدى الآريين .

أما فقر اللغات السامية في مقابل اللغات الآرية فقد نظر إليه
على أنه شيء حسن بدل عده كما فعل رينان شيئاً سيئاً . فلأن
جذر الكلمة في السامية يمكن اكتشافه بسهولة فإن معنى ذلك الجذر
يمكن معرفته بسهولة مماثلة . كما احتفظت كل كلمة بمعناها الأصلي
مما منع التشويش . ولذلك فلم تقد الكلمات السامية إلى ترميز
ظواهر الطبيعة لأن هذه الكلمات لا تطلق إلا على الأشياء المحسوسة
المنظورة .

أما الكلمات الآرية فمختلفة ، فيما أن الجذر فيها تكتفه
بعض السوابق وبعض اللواحق وبعض الزوائد فقد كان من الصعب
التعرف عليه ، وذلك ما أدى إلى تشويش معناه الأصلي ، كما أن
الكلمات الآرية أكثر حرية من الكلمات السامية . وهي أكثر ألقاً ،
كما أدى غناها المبهر إلى تنشيط الخيال المصور وكانت هذه الصفات
هي أسباب التشويش والخطأ . هذا في مقابل أن الساميين لا يقعون
فريسة لتخدير الكلمات أو الأساطير التي تنتج عنها ؛ فالأسماء التي
تدل على الرمز لا تحددهم بخصائصها الغامضة .

أما اللغة عند الآريين فخطر يومي محقق . وكمثال على ذلك فإن الشمس التي هي مصدر الحياة كانت في الوقت نفسه شيئاً مخيفاً . فبسبب عدم وضوح الكلمة التي تطلق على الشمس في اللغة الآرية ، ولوجود كلمات مختلفة تطلق على كل حالة من حالاتها فقد أصبحت الكلمات بمثابة الشَّرْك . وذلك ما أدى بمصدر الضوء هذا إلى أن يكون الرمز ... وعين متحركة ، وقوة مبهرة ... وبعد أن تطورت هذه الصفات اكتسبت الشمس في نظرهم القدرة ... وعندما اختفى جذر الكلمة نهائياً أصبحت الشمس رمزاً . وقد استخدم مولر القيدا للتدليل على ذلك .

كما أن كل كلمة في اللغات الآرية يمكن أن تتحول إلى أسطورة . وذلك ما يمكن أن يجعل أي اسم أو صفة تتطور لتصور رمزاً ، وبما أن هذه اللغات وخاصة السنسكريتية غنية في المجاز فقد جعلها ذلك مصدراً خصباً للأساطير⁽⁶⁾ .

ومن ذلك يتبين أن منهج ماكس مولر اللغوي والتاريخي قد حددته مسلماته الدينية . ومن هؤلاء العلماء الأوروبيين نرى أدولف بكتيت (1799 - 1875) الذي جعل شغله الشاغل نفخ الروح من جديد في الجنس الآري وذلك بالكشف عن تاريخه البدائي بواسطة اللغة وعلم اللغة . وقد وصف اللغة الآرية التي جعلت من هذا الجنس متفوقاً بقوله إنها تثير الإعجاب بغناها وقوتها وموسيقيتها وتناسق واكتمال بنيتها ؛ وهي لغة تعكس كل الصفات الموجبة التي يتحلى بها هذا الجنس من حيث العواطف الحميمة والتطلع إلى عالم مثالي . وهي لغة ملأى بالصور الخيالية والأفكار الصحيحة ، وهي تحمل بذور غناها المستقبلي ، كما أنها تمتاز بشعرها الفخم وفكرها العميق .

وقد أخذ في البحث عن جذور هذه اللغة مستخدماً ما أسماه علم اللغة التطوري (Linguistic Paleontology) كما استنتج أن عقيدة التوحيد ليست مقصورة على الساميين بل إن الديانة الزرادشتية الفارسية وهي التي تنتمي إلى الجنس الآلي كانت توحيدية ومعاصرة لموسى⁽⁷⁾.

وكرد فعل لهذه الدراسات ظهر من ينادي بإعادة الاعتبار للجنس السامي . ومن هؤلاء إجناس يهودا جولدزيهر (1805-1921). وكان هدفه منذ البداية البرهنة على أن الجنس السامي لديه أساطير مثلما عند الآخرين . وهذا ما قاده إلى تفسير نصوص التوراة تفسيراً أسطورياً . وكان منهجه هو استخدام المناهج التي استخدمت في سبيل نفي هذه الموهبة عن الساميين وإثباتها للآريين . وكانت اللغة هي الوسيلة التي استخدمها لذلك فتراه ينقد آراء رينان ومولر التي تجعل من اللغة السامية مانعاً في سبيل إبداع الأساطير⁽⁸⁾.

وهكذا نرى أن الكتاب المقدس كان وراء هذه الدراسات طوال تلك الفترة . فقد أحييت المقارنة بين نظام اللغات السامية ونظام اللغات الآرية السؤال القديم عن اعتناق الساميين لعقيدة التوحيد واعتناق الآريين عقيدة الوثنية . فعلى رغم تغير الوسيلة فإن الأسئلة التي تثار مازال هي هي : وكان الدافع الآخر لهذا المنحى المتحيز من البحث رغبة أوروبا في التمييز والظن بأن العرق الآري جنس متفوق منذ القدم على الأجناس الأخرى .

وينبغي الإشارة هنا أن هذه الآراء والتحيزات أخذت في التلاشي مع تقدم البحث اللغوي في أوروبا حتى توج ذلك بدراسات فرديناند دي سيسور . فقد وجه نقداً صارماً لتلك الاعتقادات في

كتابه الذي جمعه طلابه بعد موته من المحاضرات التي كان يلقيها ، خاصة في الباب الرابع والباب الخامس . فهو يقول : " ... إن هذه الفكرة [أن اللغة خاصة معينة لمجموعة لغوية معينة] على الرغم من ملاءمتها إلا أنها تصبح سبباً في التضليل إذا عُدَّت اللغة صفة محددة ليس للأمة فحسب ، بل صفة محددة للعرق أيضاً ، وذلك إذا عني أن تكون في مستوى لون البشرة وشكل الرأس " ⁽⁹⁾ . كما يقول : " إنه يجدر بالإشارة أن كل أمة تعتقد في تفوق لغتها وتسرع في عد من يتكلمون لغة أخرى بأنهم عاجزون عن الكلام . فالكلمة اليونانية barbaros بربري تعني " الشخص الذي يتلعثم " ومثلها الكلمة اللاتينية balbus بالمعنى نفسه : أما في الروسية فإن الألمان يوصفون بأنهم Nemtsy أي " بكم " ⁽¹⁰⁾ .

وفي الباب الخامس يناقش قضايا اللغة والعرق والوحدة العرقية وعلم اللغة التطوري واللغة والعقل الجمعي والأسر اللغوية ويرى أن معظم الأفكار التي سادت عن هذه القضايا ليس لها ما يؤيدها . وكان من نتائج هذا التوجه الجديد أن أوقفت مجلة الجمعية اللغوية الفرنسية نشر أي بحث يتعلق بهذه القضايا خاصة ما يتعلق بأصل اللغة . وتوجه البحث بدلاً عن ذلك إلى الدراسة الموضوعية للغة بعيداً عن التوجهات العرقية .

نظرية سابير وورف :

ولا يمكن الكلام عن التحيز اللغوي في الفكر الغربي من غير مناقشة النظرية التي افترضها اللساني والأنثروبولوجي الأمريكي الشهير إدوارد سابير (1844 - 1939) وتلميذه بنجامين لي

وورف (1797 - 1941). وكان نشاط سابير يتركز على دراسة لغات الهنود الحمر في أمريكا ؛ ومن خلال مقارنة أنظمة هذه اللغات الأوروبية توصل إلى أن هناك فروقاً جذرية في كيفية تصنيف هذه اللغات المختلفة للأشياء في الكون ، ولذلك فإن المتكلم لأي لغة يقع تحت رحمة تلك اللغة ، فلا يرى الكون إلا كما تفصله هي له . وكذلك أبحاث وورف ؛ فقد أخذت في التوسع في مناقشة هذه القضية حتى نسبت هذه الفرضية إليهما .

وتقوم هذه الفرضية على ركنين : (1) الحتمية اللغوية Linguistic determinist وتعني أن اللغة تحكم الفكر ، و(2) النسبية اللغوية Linguistic relativity وتعني أنه لا حد للاختلافات البنيوية بين اللغات .

ولم يكن هدف سابير وورف من هذه الفرضية التحيز ضد أي لغة لكنه كان تفسيراً للفروق التي رآها بين اللغات . غير أن هذه الفرضية استخدمت لأسباب أيديولوجية من قبل غير المختصين ، وانتقلت بسرعة إلى الأبحاث الأنثروبولوجية والإثنية والنفسية .

أما في الدراسات اللسانية فإنها لم تكتسب مكانة مشاهة ، بل وجهت الأبحاث إلى التدليل على أن هذه الفرضية لا يمكن أن تصح في صياغتها تلك . ومن ذلك ما يقوله جون ليونز : " من المحتمل أنه لا يوجد هذه الأيام أي واحد يمكن أن يدافع عن الحتمية اللغوية والنسبية اللغوية كليهما في شكلهما المتطرف ؛ لكنه يمكن أن يدافع عن صيغة لهما أضعف وأقل لفتاً للنظر " (11) .

فمن المعروف " أن الذاكرة والإدراك كليهما يتأثران بالكلمات والتعبير الملائمة المتاحة في أي لغة . فمثلاً ، أوضحت

التجارب العلمية أن الذاكرة البصرية تميل إلى أن تكون مشوشة حتى يمكن أن تلائم التعبيرات المتاحة في اللغة ؛ كما أن ذلك ما يجعل المتكلمين يلاحظون (ويتذكرون) الأشياء التي رُمّزت في لغتهم ، أي تلك الأشياء التي تقع في حدود الكلمات والتعبيرات المتاحة . وذلك مثل أن في اللغة الإنجليزية كلمة لتعين أخي الأب ، لكن ليس فيها كلمة لتعين أخي الأم . وكذلك في لغة الاستراليين الأصليين ، إذ لا توجد كلمة واحدة لتسمية " الرمل " بل كلمات متعددة لتسمية أصنافه . غير أن هذه الأسماء المتعددة لأصناف الشيء الواحد ليست مقصورة على هؤلاء ، بل يمكن أن تنتقل إلى الآخرين الذين يتكلمون لغات أخرى بشكل مباشر ⁽¹²⁾ .

ويضاف إلى ذلك أن ترميز مقولة معينة في لغة معينة ليس من الضروري أن تكون مطردة وعامة لدى كل أعضاء المجموعة اللغوية المعينة . ويقول ليونز ملخصاً الرأي : " إن من الممكن القول إن أغلب علماء النفس واللسانيين والفلاسفة يمكن أن يقرروا بأن هناك تأثيراً ما للغة على الذاكرة والإدراك والفكر ، لكنهم يشككون في قبول الصيغة الأقوى لفرضية سابير وورف ⁽¹³⁾ . ويوافق رأي جون ليونز هذا عدد كبير من الفلاسفة واللسانيين أمثال مايكل ديفيت وكيم سيتروليني ⁽¹⁴⁾ ورتشارد هدسون ⁽¹⁵⁾ وتشومسكي ⁽¹⁶⁾ وكيث آلان ⁽¹⁷⁾ وكلاارك وكلاارك ⁽¹⁸⁾ وروبرت هول ⁽¹⁹⁾ .

التحيز ضد اللهجات :

كان السائد في الغرب كما هو في الحضارات الأخرى أن الشكل الصحيح للغة هو النموذج الفصيح لها . أما اللهجات فهي

في منزلة أقل . ويلخص تشامبرز وتردجل هذه النظرة كما يلي :
إن اللهجات في الإستعمال اليومي تعني " شكلاً من أشكال اللغة أقل
مستوى من اللغة النموذجية ، وهي أقل منزلة ، وشكل وضع من
أشكال اللغة ، وتقترون دائماً بالفلاحين والطبقة العاملة ، أو بعض
الجماعات الوضيعة . كما أنها تطلق على بعض النوعيات اللغوية التي
تستعمل في أجزاء معزولة من العالم التي ليس لها شكل مكتوب .
وينظر إلى اللهجات دائماً على أنها خروج عن اللغة النموذجية وفساد
أصاها " (20).

وقد أثبت البحث اللساني في الغرب أنه لا مجال للمفاضلة بين
أشكال اللغة . فاللغة النموذجية واللهجات كلتاها تتميزان بوجود
أنظمة لغوية مطردة تحكمهما . أما تفضيل اللغة النموذجية فسيبه
ارتباطها بعوامل أخرى غير لغوية . كالتاريخ والانتماء القومي
والثقافي . وقد أوضحت الدراسات اللسانية أن اللغة النموذجية
نفسها في لغات كثيرة كانت في فترة ما شكلاً متكلماً . أي لهجة .
ونظراً لمصادفة تاريخية محضة أصبحت تعد في منزلة أرقى من
اللهجات الأخرى بعد أن تتخذ لغة للإدارة والثقافة (21) . وهذه
الأفكار تتكرر في كل كتب علم اللسانيات الاجتماعية وعلم
اللهجات ، ومقدمات اللسانيات .

وهكذا نرى الفكر الغربي يتخلص كلياً من أنواع التحيز
المتعلقة باللغة كلها ، ويقترّب من دراسة اللغة بموضوعية وحيادية .
بل إننا نجد النظرية اللسانية التي تأسست في الغرب أساساً تسعى إلى
إثبات أن ما نراه من خلاف ظاهري بين اللغات واللهجات لا يدل
على اختلاف حقيقي بينها . فالبحث اللساني المعاصر كله موجه نحو
البرهنة على أن اللغات كلها يحكمها عدد قليل من المبادئ العامة .

وأن أكثر الاحتمالات أن نجد القوانين اللغوية في لغة ما مشابهة للقوانين التي نجدها في اللغات الأخرى . فلا وجه لتفضيل لغة على لغة أو لهجة على لهجة بالنظر إلى تركيبها .

التحيز اللغوي عند العرب :

ليس العرب بدعاً بين الأمم في هذا الشأن . فقد ظهر التحيز اللغوي عندهم في كافة أطوار تاريخهم الثقافي . وسوف أناقش هنا مظاهر هذا التحيز والكيفية التي ورد بها والأسباب التي كانت دافعة له . ويمكن أن يعالج هذا الموضوع في التراث العربي القديم على حدة ومن ثم في الدراسات العربية المعاصرة .

مظاهر التحيز اللغوي :

يمكن أن يتخذ التحيز اللغوي عند العرب المظاهر الآتية :

- 1 أن اللغة العربية أول اللغات نشأة .
- 2 اللغة العربية أفضل اللغات وأكملها وهي لغة أهل الجنة .
- 3 فصاحة قريش .
- 4 نشأة النحو .

اللغة العربية أول اللغات نشأة :

كانت نشأة اللغة عند الإنسان من القضايا الكبرى التي ناقشها اللغويون العرب ، وكانت هذه القضية تأتي في إطار تفسير

قوله تعالى : " وعلم آدم الأسماء كلها " ⁽²²⁾ . فقد اختلف المفسرون واللغويون في أصل اللغة : أهي إلهام أم اصطلاح . وكان أكثر النقاش يوحى بأنهم يتكلمون عن اللغة العربية وحسب ، ولو أنه ورد في بعض الأقوال الكلام عن اللغة الإنسانية بعامة .

ويعيننا هنا أن نرى كيف نظر إلى العربية في إطار هذه المسألة . وقد لخص السيوطي الأقوال والآراء التي قال بها اللغويون والمفسرون . ومن ذلك ما يقوله ابن جني : " وعلى أنه قد فسر هذا [أي وعلم آدم الأسماء كلها] بأن قيل : إنه تعالى علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات : العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية وغير ذلك من سائر اللغات ؛ فكان آدم وولده يتكلمون بها . ثم إن ولده تفرقوا في الدنيا ، وعلق كل واحد منهم بلغة من تلك اللغات ، فغلبت عليه ، واضمحل عنه ما سواها ؛ وبعد عهدهم بها " ⁽²³⁾ . كما أنه يورد احتمالات أخرى كالمواضعة وتقليد أصوات الطبيعة . ويبدو أنه يجيز أن تبدأ المواضعة بأي لغة ، ثم يولد منها اللغات الأخرى ⁽²⁴⁾ . ومع هذا يعود إلى عد اللغة العربية اللغة الأولى وأنها وحي من الله ، فيقول : " واعلم فيما بعد ، أنني على تقادم العهد ، دائم التنقيح والبحث عن هذا الموضوع ، فأجد الدواعي والخوارج قوية التجاذب لي ، مختلفة جهات التغول على فكري وذلك أنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة ، الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة ، والإرهاق والرقّة ، ما يملك علي جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر . فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله ومنه ما حدوته على أمثلتهم ، فعرفت بتابعه وانقياده ، وبعد مراميهِ وآماده ، صحة ما وفقوا لتقديمه منه . ولطف ما أسعدوا به ، وفرق لهم عنه . وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار

المأثورة بأنها من عند الله عز وجل ؛ فقوي في نفسي اعتقاد كونها توفيقاً من الله سبحانه ، وأنها وحي " (25) .

ثم يعود مرة أخرى ليعبر عن حيرته بين الاعتقاد بأفضلية العربية وأوليتها واحتمال وجود لغة قبلها تماثلها في مزاياها . وبعد أن يوازن بين هذين الرأيين لا يجد أحدهما راجحاً بالآخر ، فيتوقف عن الجزم بأحدهما ؛ ويعلقه إلى أن يعثر بمرجح لأحدهما على الآخر ، فيقول : " وإن خطر خاطر فيما بعد ، يعلق الكف بإحدى الجهتين ، ويكفها عن صاحبتهما ، قلنا به ، وبالله التوفيق " (26) .

ويشير هذا التردد والحيرة إلى قوة التحيز إلى اللغة العربية مما يرغب علماء مثل ابن جني على الخضوع له .

ويذكر السيوطي أن الذين قالوا بالتوقيف " اختلفوا في لغة العرب ، فمنهم من قال : هي أول اللغات ، وكل لغة سواها حدثت بعدها إما توقيفاً أو اصطلاحاً ؛ واستدلوا بأن القرآن كلام الله وهو عربي ، وهو دليل على أن لغة العرب أسبق اللغات وجوداً " (27) . كما يورد قولاً لابن عباس يقول فيه إن آدم عليه السلام " كان لغته في الجنة العربية ، فلما عصى سلبه الله العربية فتكلم بالسريانية فلما تاب رد الله عليه العربية " (28) كما يورد قول عبد الملك بن حبيب " أن اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة كان عربياً ، إلى أن بعد العهد وطال ، حرّف وصار سريانياً وهو كان لسان جميع من في سفينة نوح ، إلا رجلاً واحداً يقال له جرهم ، فكان لسانه لسان العربي الأول " (29) .

ويورد كذلك أحاديث ترفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أول من فُتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل عليه

السلام ، وهو ابن أربع عشرة سنة " (30) . بل إنه يورد كذلك حديثاً مفاده أن سر فصاحته صلى الله عليه وسلم هو إحياء الله إليه لغة إسماعيل عليه السلام بعد أن درست (31) .

ومن الملاحظ أن الآثار الأخيرة تنقض الأقوال الأولى وهذه الأخيرة أحاديث ضعيفة (32) .

ومع ذلك فإن هذه الآثار والأحاديث الضعيفة يستشهد بها على أولية اللغة العربية . ومن ذلك ما يورده الجاحظ في البيان والتبيين في باب " القول في إنطاق الله عز وجل إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ، بالعربية المبينة على غير التلقين والتمرين ، وعلى غير التدريب والتدريج ، وكيف صار عربياً أعجمي الأبوين " (33) . ثم يورد الأخبار التي ذكرت هنا .

وهذه الآراء والأقوال مشابة لما عند الأمم الأخرى من حيث النظر إلى اللغة المعينة أنها أقدم اللغات وأولها . ويعني هذا إضفاء الهيبة عليها . وعلى الرغم من عدم صحتها فإننا نجدها شائعة في كتب اللغة والأدب والمعاجم والتاريخ .

2 اللغة العربية أفضل اللغات وأكملها وهي لغة أهل الجنة :

تحتوي كتب اللغة والأدب والمعاجم نصوصاً كثيرة بعضها في صيغة أحاديث يؤخذ منها أن اللغة العربية لغة أهل الجنة وأنها أفضل اللغات وأكملها . ومن تلك الأحاديث ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أحبوا العرب لثلاث : لأني عربي والقرآن

عربي ، وكلام أهل الجنة عربي ". وهو حديث موضوع⁽³⁴⁾ . وكذلك الحديث الآخر الذي نصه : " أنا عربي والقرآن عربي ، ولسان أهل الجنة عربي "⁽³⁵⁾ . ويعلق الألباني على هذا الحديث قائلاً : " وما يدل على بطلان نسبة هذا الحديث إليه صلى الله عليه وسلم أن فيه افتخاره بعروبه ، وهذا شيء غريب في الشرع الإسلامي لا يلتئم مع قوله تعالى : " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " وقوله صلى الله عليه وسلم : " لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى "⁽³⁶⁾ .

ومع ذلك فإن مثل هذه الأحاديث تذكر من غير ذكر لدرجة صحتها أو ذكر وضعها إن كانت موضوعة . ومن ذلك ما نجده في مقدمة ابن منظور للسان العرب⁽³⁷⁾ ، وفي مقدمة تاج العروس للزبيدي⁽³⁸⁾ ، وفي كتاب إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري⁽³⁹⁾ ، وغيرها كثير .

ومما يشير إلى شيوع هذه الاعتقادات أننا نجد فحواها في كثير من مقدمات الكتب اللغوية والتفاسير والمعاجم والكتب الفقهية . ومن ذلك ما يقوله ابن منظور في مقدمة قاموسه : " وشرف هذا اللسان العربي بالبيان على كل لسان ، وكفاه شرفاً أنه به نزل القرآن وأنه لغة أهل الجنان "⁽⁴⁰⁾ ، كما يقول : " ويصل النفع به (أي بقاموسه) بتناقل العلماء له في الدنيا ، وينطق أهل الجنة به في الآخرة "⁽⁴¹⁾ .

ويقول ابن سيده في المحكم : " هذه اللسان الفصيحة ، الزائدة الحسن ، على ما أوتيته سائر الأمم من اللسن "⁽⁴²⁾ . ويقول ابن جني في مقدمة كتابه المختص : " وشرحت صدورنا لمعرفته من لطائف مودعات لغة نبيك ، التي فضلتها على سائر اللغات "⁽⁴³⁾ . وذلك بالإضافة إلى نصوص وردت عنده في كتاب الخصائص ومنها

النص الذي أشرنا إليه فيما مضى ، ويقول الباقلاني : " ثم أوضح ذلك بأن قال (بلسان عربي مبين) فلولا كونه بهذا اللسان حجة لم يعقب كلامه الأول به " (44) ؛ كما يقول : " ويمكن بيان ذلك بأننا لا نجد في القدر الذي نعرفه من الألسنة للشيء الواحد ، من الأسماء ما نعرف من اللغة ، وكذلك نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على ما تتناوله العربية ، وكذلك التصرف في الاستعارات والإشارات ووجوه الاستعمالات البديعة " (45) ، ويقول : " العربية أشدها تمكناً وأشرفها تصرفاً وأعد لها ، ولذلك جعلت حلية لنظم القرآن ، وعلق بها الإعجاز ، وصار دلالة في النبوة " (46) .

ويقول الإمام الشافعي : " ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي " (47) . ويعلق ابن فارس قائلاً : " وهذا كلام حري أن يكون صحيحاً " (48) كما يقول الشافعي : " وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي ، ولا يجوز والله أعلم أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد بل كل لسان تبع للسانه " (49) .

ويحتوي البيان والتبيين نصوصاً تفضل فيها العرب ولغتهم على اللغات الأخرى ؛ ومن ذلك قوله : " ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب الفضل على الأمم كلها في أصناف البلاغة ، من القصيد والأرجاز ، ومن المنثور والأسجاع ، ومن المزدوج وما لا يزدوج فمعنا على أن ذلك لهم شاهد من صدق الديباجة الكريمة والرونق العجيب والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك ، إلا في اليسير والشيء

القليل ⁽⁵⁰⁾، ويعلق عبدالقاهر الجرجاني على ذلك بقوله: " والأمر في ذلك أظهر من أن يخفى أو أن ينكره إلا جاهل أو معاند" ⁽⁵¹⁾. كما يقول الجرجاني: " ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله التفاضل وأن للتفاضل فيه غايات ينأى بعضها عن بعض ومنازل يعلو بعضها بعضاً، وأن علم ذلك يخص أهله ، وأن الأصل فيه والقدوة العرب ، ومن عداهم تبع لهم ، وقاصر فيه عنهم " ⁽⁵²⁾، ويطنب أبو حيان التوحيدي في وصف لغة العرب فيقول: " وقد سمعنا لغات كثيرة وإن لم نستوعبها من جميع الأمم ، كلغة أصحابنا العجم والروم والهند والترك وخوارزم وصقلاب وأندلس والزنج ، فما وجدنا لشيء من هذه نصوع العربية ، أعني الفرج التي في كلماتها ، والقضاء الذي نجده بين حروفها والمسافة التي بين مخارجها ، والمعادلة التي نتدونها في أمثلتها ، والمساواة التي لا تجحد في أبيتها ، وإذا شئت أن تعرف حقيقة هذا القول ، وصحة هذا الحكم ، فالحظ عرض اللغات الذي هو بين أشدها تلابساً وتداخلاً ، وترادفاً وتعاضلاً وتعسراً وتعوصاً ، وإلى ما بعدها مما هو أسلس حروفاً ، وأرق لفظاً ، وأخف اسماً ، وألطف وزناً ، وأحضر عياناً ، وأحلى مخرجاً وأجلى منهجاً ، وأعلى مدرجاً ، وأعدل عدلاً ، وأوضح فصلاً وأصح وصلاً ، إلى أن تنزل إلى لغة بعد لغة ، ثم تنتهي إلى العربية ، فإنك تحكم بهذا المبدأ الذي أشرنا إليه في العوائص والأغماض ، سرى قليلاً قليلاً حتى وقف على العربية في الإفصاح والإيماض " ⁽⁵³⁾.

ويقول أبو بكر الزبيدي: " جعل اللغة العربية أفصحها لساناً ، وأوضحها بياناً ، وأوسعها افتناناً ، وأعذبها مخارج ، وأقومها مناهج ، وأصحها مقاطع ، وألطفها مواقع . واختارها من بين اللغات

لأنبيائه ، وصفوة أوليائه ، عند حلولهم دار المقامة ، ومحل الكرامة ، فيها وإياها من ربه يستمعون " (54) ، ويقول الجاحظ : " ولفضل الفصاحة والبيان بعث الله تعالى أفضل أنبيائه وأكرم رسله من العرب ، وجعل لسانه عربياً ، وأنزل عليه قرآناً عربياً " (55) ، ويقول المعافري السرقسطي : " وأن أشرف ما عني به الطالب بعد كتاب الله عز وجل لغات العرب وآدابها ، وطرائف حكمها ، لأن الله تبارك وتعالى اختارها من بين اللغات لخير عترة وأشرف أمة ، ثم جعلها لغة أهل دار المقامة في جواره ومحل كرامته . فهي أفصح اللغات لساناً وأوضحها بياناً ، وأقومها مناهج ، وأثقفها أبنية ، وأحسنها بحسن الاختصار تألقاً . وأكثرها بقياس أفعالها تصرفاً " (56) .

ويقول الفارابي : " وأما اللسان فهو كلام جيران الله في دار الخلد ، وهو المنزه من بين الألسنة من كل نقيصة ، والمعلّى على كل خسيصة ، والمهذب مما يهجن أو يستشنع ، فبني مباني بأن بها جميع اللغات ، من إعراب أوحده الله له ، وتأليف بين حركة وسكون حلاه به " (57) .

فهذه الأقوال جميعها قالها لغويون ونحاة وبلاغيون وأدباء وفقهاء في مختلف العصور ويمكن أن يضاف إليها الكثير ومنهم من غيرهم . والذي يشكك في صحتها أسباب كثيرة منها :

1 أن الأحاديث التي كانت سبباً في شيوع هذه الاعتقادات ضعيفة أو موضوعة .

2 أن هذه الأقوال توجد في كل حضارة ، إذ يعتقد المتكلمون للغة هذه الحضارة أن لغتهم هي الأفضل .

3 أن تفضيل اللغة العربية لم يكن ناتجاً عن مقارنتها بلغات أخرى وذلك على الرغم من زعم أبي حيان التوحيدي . فأكثر اللغويون والنحاة والفقهاء لا يعرفون إلاّ اللغة العربية . أما الذين يعرفون لغة أخرى مثل الفارسية فقد كانوا وراء كثير من التحيز ضد اللغة العربية كما سنعرف فيما بعد .

4 أنه كلما درست هذه الاعتقادات وجد أنه لا دليل عليها ، وقد سبق أن عرضنا لذلك فيما يخص الدراسات الأوروبية والدراسات اللسانية .

وكما رأينا فإن نزول القرآن الكريم باللغة العربية كان يتخذ حجة على فضل اللغة العربية وتميزها عن غيرها . غير أننا إذا رجعنا إلى كتب التفسير فإن بعض المفسرين لا يفسرون الآيات التي يستشهد بها على فضل العربية بكيفية توحى بتفضيلها . ومن ذلك ما يقوله الإمام الطبري في مقدمة تفسيره عند الكلام على قوله تعالى : "وما أرسنا من رسول إلاّ بلسان قومه" . إذ يقول : " فقد تبين إذاً بما عليه دللنا من الدلالة أن كل رسول لله ، جلّ ثناؤه ، أرسله إلى قوم ، فإنما أرسله بلسان من أرسله إليه ، وكل كتاب أنزله على نبي ، ورسالة أرسلها إلى أمة فإنما أنزله بلسان من أنزله أو أرسله إليه ، واتضح بما قلنا ووصفنا أن كتاب الله ، الذي أنزله إلى نبينا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، بلسان محمد صلى الله عليه وسلم " (58) .

فليس في هذا التفسير إلاّ توضيح لسنة الله في إرسال كل رسول بلسان من أرسل إليهم . وكذلك تفسير أبي حيان لهذه الآية ؛ إذ يورد قولاً للضحّاك يقول فيه " والضمير في (قومه) عائد على محمد صلى الله عليه وسلم ، قال : والكتب كلها نزلت بالعربية ، ثم أداها

كل نبي بلغة قومه ". لكن أبا حيان يورد رد الزمخشري على هذا القول وهو : " قال الزمخشري : وليس بصحيح لأن قوله : " ليبن لهم " ضمير القوم وهم العرب ، فيؤدي إلى أن الله أنزل التوراة من السماء بالعربية ليبن للعرب ، وهذا معنى فاسد ". ويورد كذلك قولاً للكلي أن " جميع الكتب تأدت إلى جبريل بالعربية وأمره تعالى أن يأتي رسول كل قوم بلغتهم ، لكنه عندما يفسر قوله تعالى : (بآياتنا) يقول: " وقيل يجوز أن يراد بها آيات التوراة . والتقدير : كما أرسلناك يا محمد بالقرآن بلسان عربي وهو آياتنا كذلك أرسلنا موسى بالتوراة بلسان قومه " (59).

لقد وصف الله القرآن الكريم بأنه مبين في اثني عشر موضعاً ووصفه بأنه قرآن عربي في ستة مواضع ، وأنه بلسان عربي في ثلاثة مواضع وأنه حكم عربي في موضع واحد⁽⁶⁰⁾. ولم يفسر الطبري أي واحد من هذه المواضع بأنه تفضيل للغة التي أنزل بها . أما " مبين " فقد فسرها بقوله ، عند تفسير قوله تعالى " الرّ تلك آيات الكتاب المبين " (61): والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال : معناه : هذه آيات الكتاب المبين لمن تلاه وتدبر ما فيه ، من حلاله وحرامه ومنهيه وسائر ما حواه من صنوف معانيه ، لأن الله جل ثناؤه أخبر أنه مبين ، ولم يخص إبانته عن بعض ما فيه دون جميعه ، إذ كان جميعه مبيناً عما فيه " (62). ويكرر هذا التفسير في كل المواضع التي يوصف القرآن بأنه مبين . كما يفسر وصف القرآن بأنه عربي بقوله ، عند تفسيره لقوله تعالى : " إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون " (63): "يقول تعالى ذكره : إنا أنزلنا هذا الكتاب المبين قرآناً عربياً على العرب ، لأن لسانهم وكلامهم عربي ، فأنزلنا هذا الكتاب بلسانهم ،

ليعقلوه ، ويفقهوا منه " (64) كما يفسر قوله تعالى : " بلسان عربي مبين " (65) تفسيراً لا يخرج عن هذا التفسير ، فيقول : " وإنما ذكر تعالى ذكره أنه أنزل هذا القرآن بلسان عربي مبين في هذا الموضع ، إعلاماً منه مشركي قريش أنه أنزله كذلك ، لئلا يقولوا إنه نزل بغير لساننا ، فنحن إنما نعرض عنه ولا نسمعه ، لأننا لا نفهمه ، وإنما هذا تقرير لهم " (66) وكذلك تفسيره للآيات الأخرى التي تشبه هذه الآية . كما أن تفسير أبي حيان لا يخرج عن تفسير الطبري في فهم هذه الآيات .

فإنزال القرآن الكريم بالعربية إذن يجب ألا يفهم منه أنه تفضيل لهذه اللغة ، والإحتجاج بالآيات السابقة على تفضيلها مردود بفهم بعض المفسرين لها .

لكننا نجد بعض المفسرين ، خاصة المتأخرين منهم من يفسر هذه الآيات بأنه تفضيل للغة العربية . ومن ذلك ما يقوله القرطبي (ت 681هـ) في تفسير قوله تعالى : " وهذا لسان عربي مبين " (67) " أي أفصح ما يكون من العربية " (68) . ويفسر قوله تعالى : " إنا جعلناه قرآناً عربياً " (69) بقوله : " عربياً " أي أنزلناه بلسان العرب ؛ لأن كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه ؛ قاله سفيان الثوري وغيره ، قال مقاتل : لأن لسان أهل السماء عربي " (70) .

كما يقول ابن كثير (ت 774هـ) في تفسيره قوله تعالى (إنا أنزلناه قرآناً عربياً) (71) : " وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل " (72) .

أما سيد قطب فيقول في تفسير قوله تعالى : (إنا جعلناه قرآناً عربياً)⁽⁷³⁾ : " كما اختير لها (الرسالة الإسلامية) اللسان الذي يصلح لحملها إلى أقطار الأرض . ولو كانت لغة ميتة أو ناقصة التكوين الطبيعي ما صلحت لحمل هذه الدعوة أولاً ، وما صلحت بالذات لنقلها إلى خارج الجزيرة العربية ثانياً . وقد كانت اللغة كأصحابها ، أصلح ما تكون لهذا الحدث العظيم "⁽⁷⁴⁾ .

غير أن هذا الفهم واحد من الممكنات وليس لازماً أن يكون هو الفهم الوحيد لهذه الآيات . ولابد أن نلاحظ أن القرآن الكريم نفسه لا يصف حال العرب كما يصفهم سيد قطب وذلك أننا نجد في القرآن الكريم آيات تدل على وضعهم السيئ الذي كانوا عليه كقوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون)⁽⁷⁵⁾ . كما امتن الله على العرب بأن رفع من غير منزلتهم بالقرآن (وأنه لذكر لك ولقومك)⁽⁷⁶⁾ . وهناك من الآثار ما يبين حال العرب السيئ أيضاً مثل كلام جعفر بن أبي طالب عند ملك الحبشة . وخلاصة القول فإن ما يقال من أن اللغة العربية أصلح اللغات لحمل القرآن الكريم أو أن العرب أصلح الناس لحمل الإسلام قول لا دليل عليه بل إن الله عز وجل يقول : (الله أعلم حيث يجعل رسالته)⁽⁷⁷⁾ فهو وحده الذي يعلم لم اختار إرسال محمد صلى الله عليه وسلم من العرب .

3 - فصاحة قريش :

حظيت قريش ببناء على لغتها لم تنله غيرها من قبائل العرب

الأخرى . ويأتي هذا الثناء أحياناً في صيغة أحاديث تنسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تتحدث عن فصاحته أو أحاديث أخرى يستدل بها على فصاحة قريش التي ينتسب إليها .

ومن أشهر الأحاديث ما يروى أنه صلى الله عليه وسلم قال: " أنا أفصح العرب بيد أي من قريش ورييت في بني سعد " . وهذا الحديث موضوع⁽⁷⁸⁾ وكذلك لفظه الذي أورده الألباني : " أنا أعربكم أنا من قريش ، ولساني لسان بني سعد بن بكر " فقد قال عنه إنه موضوع⁽⁷⁹⁾ ، وعلى الرغم من وضع هذا الحديث فإنه يستشهد به ويحتج على تميز قريش عن غيرها من العرب بالفصاحة ويرد في كثير من كتب الأدب واللغة والتاريخ⁽⁸⁰⁾ .

وتفسر بعض المصادر الآية الكريمة : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) أن ذلك يعني بلسان قريش . فقد أورد ابن الأنباري خبراً هو : " قال أبو عبيدة ، وحدثنا مسمع بن عبد الملك عن محمد بن علي بن الحسين ، عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " كان أول من فقه لسانه بالعربية المبينة إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو ابن أربع عشرة سنة " . فقال يونس [بن حبيب] : صدقت يا أبا سيار : هكذا حدثني جزء . فإسماعيل أول من تكلم بالعربية المبينة ثم صارت إلى قريش خاصة . وتصديق ذلك في القرآن: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) ، إلا أن العربية المبينة لهم بلسان قريش قوم النبي صلى الله عليه وسلم⁽⁸¹⁾ وقد رأينا من قبل أن هذا التفسير يخالف ما عليه بعض أهل التفسير .

ويرد في المصادر العربية نصوص كثيرة تمتدح فيها لغة قريش . ومن ذلك ما يرد في المزهري مروباً عن ابن فارس في كتابه فقه اللغة

العربية أنه قال : " أخبرني أبو الحسن أحمد بن محمد مولى بني هاشم بقزوين ، قال : أجمع علمائنا بكلام العرب ، والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحامهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب ، واختار منهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قطان حرمه ، وولاة بيته ؛ فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويستحاضون إلى قريش ، في دارهم ، وكانت قريش ، مع فصاحتها وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلاتتهم التي طبعوا عليها : فصاروا بذلك أفصح العرب " (82).

وقد روى ابن فارس هذا النص عن مولى لبني هاشم وهو ما يثير الشك في هذا الخبر ، ثم إنه لم يذكر من العلماء الذين أجمعوا . وحتى لو أجمع هؤلاء فإن إجماعهم يخالف ما يذكره رواة اللغة الأوائل مثل أبي زيد الذي يروى عنه أنه قال : " أفصح الناس سافلة العالية ، وعالية السافلة ، يعني عجز هوازن " (83) كما روى عن أبي عمرو بن العلاء قوله : " أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم " (84) . وورد في العين " أفصح العرب نصر قعين أو قعين نصر " (85) وقول أبي عمرو : " أفصح الشعراء ألسناً وأعربهم أهل السروات ، وهن ثلاث ، وهي الجبال المطلة على قحاة مما يلي اليمن ، فأولها هذيل ، وهي تلي الرمل من قحاة ؛ ثم علي السراة الوسطى وقد شركتهم ثقيف في ناحية منها ، ثم سراة الأزد ، أزد شوء وهم بنو الحرث بن كعب بن الحرث بن نصر بن الأزد " (86) ، ثم إن هذا النص لم يصف لغة قريش

إلا بصفات عامة لا نعرف ما تعني كالرقة والعدوبة والصفاء .
ويلاحظ هنا شيء من التناقض فإذا كانت لغة قريش بهذا المستوى من
الفصاحة والحسن ، أليس من المنتظر أن تستغني عن ما عداها ؛ أما
إذا استعارت من غيرها وكان من نتيجة ذلك إضافة شيء لم يكن
موجوداً فيها فإن وصفها قبل هذه الاستعارة بالكمال ضرب من
المبالغة . والزعم بأن قريشاً أو غيرها يمكن أن تختار عن وعي من
اللغات الأخرى زعم يحتاج إلى برهان أقوى مما قدم .

كما يقتضي هذا الزعم أن قريشاً كانت تقوم بتحليل
اللهجات الأخرى وتوازن بين خصائصها وتقومها ثم تختار ما وافق
موازين معينة لديها ، وهذا يحتاج إلى عمل ضخم منظم لا يمكن القيام
به بسهولة حتى في العصر الحاضر .

ومثل هذا الخبر ما قاله الفارابي : " كانت قريش أجود العرب
انتقاداً للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ،
وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما في النفس " (87) . وينطبق ما قيل
عن نص ابن فارس على هذا النص إذ أن لغة قريش وصفت بصفات
لا يعرف ما تدل عليه . وعلى الرغم من ثناء الفارابي فإنه في النص
نفسه يقول : " والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى ،
وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وقيم وأسد؛
فإن هؤلاء هم الذين عنهم أخذ أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل
في الغريب وفي الإعراب والتصريف " (88) .

ولو كانت لغة قريش على الصورة التي رسمها لها في أول
النص فإنه من غير المستساغ الأخذ عن قبائل العرب الأخرى ، بله
الاقتصار عليها في أكثر ما أخذ ومعظمه ، والاتكال عليهم في
الخصائص الرئيسية التي يتكون منها النظام اللغوي .

ويلعل الفارابي في النص نفسه عدم الأخذ عن حاضرة الحجاز ومنهم قريش بأن "الذين نقلوا اللغة صادفوه حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم" (89). فإذا كانت لغة قريش لم ينقلها جامعو اللغة فكيف يصح أن توصف وتقارن بغيرها ؟

ومن النصوص المشهورة التي يكثُر إيرادها في المصادر العربية عن لغة قريش ذلك الخبر الذي رواه المبرد وغيره عن الأصمعي ، وهو : " وحدثني من لا أحصي من أصحابنا عن الأصمعي عن شعبة عن قتادة قال : قال معاوية يوماً : من أفصح الناس ؟ فقام رجل من السباط فقال : قوم تباعدوا عن فراتية العراق ، وتيامنوا عن كشكشة تميم وتياسروا عن كسكسة بكر ، ليس فيهم غمغمة قضاة ولا طمطممانية حمير . فقال معاوية : من أولئك ؟ فقال : قومك يا أمير المؤمنين ! فقال معاوية : من أنت ؟ قال رجل من جرم . قال الأصمعي : وجرم من فصحاء الناس " (90) ويأتي هذا الخبر مخصصاً قريشاً باسمها كما عند الزمخشري في الفائق في غريب الحديث (91) والجاحظ في البيان والتبيين (92) .

وترويه كثير من المصادر من غير ذكر لسنده . أما هنا فإن أصل الخبر يرويه قتادة بن دعامة السدوسي البصري . وهناك ملاحظات عدة على هذا النص هي :

1 أنه على الرغم مما يقوله ابن سلام عن قتادة إذ يقول : " وكان قتادة بن دعامة السدوسي من رواة الفقه ؛ عالماً بالعرب وبأنسابها ، ولم يأتنا عن أحد من رواة الفقه من علم العرب أصح من شيء أتانا عن قتادة " (93) ، فإن قتادة ولد سنة 61هـ أي بعد

وفاة معاوية رضي الله عنه بسنة . فروايته هذا الخبر ليست مباشرة .

2 وحتى لو صح الخبر فإن دلالاته ليست قاطعة ، إذ أنه لا غرابة أن يكون في مجلس الخليفة مثل هذا الكلام الذي يقصد به التزلف إليه .

3 أنه وردت روايات أخرى لهذا الخبر يقول فيها الأعرابي: " قومي " بدلاً من " قومك " ⁽⁹⁴⁾ ، وربما أصلحت إلى " قومك " في الكتب الأخرى اعتماداً على ما ورد في بعض نسخ مخطوطة الكامل .

4 أنه ورد في البيان والتبيين أن سليمان بن عبد الملك جمع بين قتادة والزهري " فغلب قتادة الزهري ، فقليل لسليمان في ذلك ، فقال " إنه فقيه مليح ، فقال القحذمي : لا ، لكنه تعصب للقرشية ، ولانقطاعه كان إليهم ، ولروايته فضائلهم " ⁽⁹⁵⁾ .

5 أننا لا ندري ما المؤهلات التي أهلت هذا الأعرابي المجهول اسمه لكي يصدر هذا الحكم .

6 أنه تروى قصة مشاهمة حدثت في مجلس عبد الملك بن مروان ينسب أعرابي فيها الفصاحة إلى قومه (عذرة) فيصدقها الخليفة ⁽⁹⁶⁾ .

7 ولقد رأينا من قبل أن أحاديث وضعت في هذا الشأن ؛ أفلا يمكن أن يكون هذا الخبر من قبيل تلك الأحاديث الموضوعية ؟

أما الصفات التي عدت قبيحة ولم توجد في لغة قريش فهي خصائص صوتية فقط ومن الصعب أن تكون وحدها مقياساً

للفصاحة. فكل لهجة لها خصائص صوتية تختلف بها عن غيرها وكل قوم يرون أن طريقة نطقهم أجمل. فلا دلالة في هذا النص على أن لغة قريش أفضل لعدم وجود هذه الصفات فيها.

وهناك من العلماء العرب القدماء من يعد مقياس الفصاحة هذا مقياساً خاطئاً. ومن هؤلاء عبدالقاهر الجرجاني، إذ يقول: "ولما كان هذا دأبهم [أي الذين يرسمون مقياس للفصاحة] ثم رأوا الناس وأظهر شيء عندهم في معنى "الفصاحة" تقويم الإعراب، والتحفظ من اللحن، لم يشكروا أنه ينبغي أن يعتد به في جملة المزايا التي يفاضل بها بين كلام وكلام في الفصاحة، وذهب عنهم أن ليس هو من "الفصاحة" في شيء يدخل في النطق، ولكن من أجل لطائف تدرك بالفهم" (97).

ويشدد الجرجاني القول في نقد من يرون أن الفصاحة في اللفظ بقوله: "ولقد بلغ من قلة نظرهم أن قوماً منهم لما رأوا الكتب المصنفة في اللغة قد شاع فيها أن توصف الألفاظ المفردة بالفصاحة، ورأوا أبا العباس ثعلباً قد سمي كتابه "الفصيح" مع أنه لم يذكر فيه إلا اللغة والألفاظ المفردة، وكان محالاً إذا قيل: إن "الشمع" بفتح الميم أفصح من الشمع بإسكانه، أن يكون ذلك من أجل المعنى، إذ ليس تفيد الفتحة في الميم شيئاً في الذي سمي به، وسبق إلى قلوبهم أن حكم الوصف بالفصاحة أينما كان وفي أي شيء كان، أن لا يكون له مرجع إلى المعنى البتة، وأن يكون وصفاً للفظ في نفسه، ومن حيث هو لفظ ونطق لسان، ولم يعلموا أن المعنى في وصف الألفاظ المفردة بالفصاحة أنها في اللغة أثبت، وفي استعمال الفصحاء أكثر، أو أنها أجرى على مقياس اللغة والقوانين التي وضعوها، وأن الذي هو معنى "الفصاحة" في أصل اللغة، هو الإبانة عن المعنى، بدلالة

قولهم " فصيح وأعجم "، وقولهم " أفصح الأعجمي " و"فصح اللحن"، و" أفصح الرجل بكذا " إذا صرح به ، وأنه لو كان وصفهم الكلمات المفردة بالفصاحة من أجل وصف هو لها من حيث هي ألفاظ ونطق لسان ، لوجب إذا وجدت كلمة يقال إنها كلمة فصيحة على صفة في اللفظ ؛ أن لا توجد كلمة على تلك الصفة إلا وجب لها أن تكون فصيحة ، وحتى يجب إذا كانت "فقهت الحديث " بالكسر أفصح منه بالفتح ، أن يكون سبيل كل فعل مثله في الزنة أن يكون الكسر فيه أفصح .

" ثم إن فيما أودعه ثعلب كتابه ، ما هو أفصح ، من أجل أن لم يكن فيه حرف كان فيما جعله أفصح منه ، مثل أن " وقفت " أفصح من " أوقفت " أفترى أنه حدث في " الواو " و" القاف " و"الفاء " بأن لم يكن معها الهمزة ، فضيلة وجب لها أن تكون أفصح؟ وكفى برأي هذا مؤداه قافئاً وخطلاً " (98).

ويتكرر إirاده هذا المعنى في مواضع كثيرة في دلائل الإعجاز. ومعنى ذلك أن الجرجاني لا يرى الفصاحة نتيجة لوصف يكون في اللفظ من حيث النطق أو البناء الصرفي بل إن فصاحة اللفظ نتيجة لضمه إلى آخر في بناء نحوي مؤثر .

والقول بأن عبدالله بن مسعود قرأ " حتى حين " في سورة يوسف يمكن أن يشكك فيه لأنه لم يؤثر عنه قراءة " حتى " عتي " في أي موضع آخر من القرآن . ولم يقرأ النص المماثل الذي ورد في سورة المؤمنون الآية (25).

كما أن القول بأن عثمان رضي الله عنه أمر عند الاختلاف أن يكتب القرآن بلغة قريش ليس له ما يؤيده من رسم المصحف ،

فهذا الخبر يفترض أن هناك تطابقاً بين الرسم الكتابي والنطق وهذا ليس صحيحاً . فالكتابة ليست إلا أداة تقريبية لتمثيل الصوت المنطوق في كل لغة .

هذا أولاً وثانياً أننا نجد في القرآن الكريم الكلمة الواحدة أو الحرف الواحد مرسوماً بطرق مختلفة ، وذلك مثل كتابة التاء المربوطة مفتوحة أو العكس ، وكتابة الألفات وكتابة الهمزات إلى آخره .

والخبر الذي روى أن عثمان أمر بسببه أن يكتب بلغة قريش ورد في سياق الاختلاف بين زيد بن ثابت والقريشيين في التابوت أيكتب بالهاء أم بالتاء . وربما انصرف كلام عثمان إلى هذه الكلمة فقط .

ومن الجدير بالذكر أن كثيراً من الصفات التي يقال إن لهجة قريش تتصف بها يمكن أن توجد في كلام أناس غير قريشيين . ومن ذلك أنه يقال إن فك الإدغام في مضارع الفعل المضعف المجزوم خصيصة قرشية . لكننا نجد هذه الظاهرة في أمثلة كثيرة في غير كلام قريش ؛ ومن ذلك قول مورك بن قيس بن عوف بن القعقاع التميمي:

كسوت حكيماً ذا الفقار ومن يكن
شعاراً له ترنن عليه أقاربه⁽⁹⁹⁾

بل إن هذه الظاهرة ونظيرها ، أي عدم فك الإدغام ، يمكن أن توجدا في ما يسمى لهجة قريش . ومن ذلك ما يرد في الأغاني :
" قال إسحق في خبره : فحدثني حمزة بن عتبة اللهبي قال : أنشد عطاء بن رباح قول العرجي :

في الحج إن حجت وماذا مني وأهله إن هي لم تحجج

فقال : الخير والله بمنى وأهله حجت أم لم تحج ⁽¹⁰⁰⁾.

ويبدو هنا أن فك الإدغام سببه وزن الشعر . لكننا أحياناً نجد أن صيغتين مختلفتين لكلمة واحدة تنسب إحداها لقريش والأخرى لغيرها تردان من غير أن تكونا بسبب الوزن . ومن ذلك قول جرير :

نبئت أن مجاشعاً قد أنكروا شِعْراً ترادف حاجبيه ترأماً ⁽¹⁰¹⁾

وقوله في القصيدة نفسها :

أنبتت أنك يا بن وردة آلف لبني خُدْية مقعداً ومقاماً ⁽¹⁰²⁾

ومن الحجج التي تورد دائماً على تفوق لغة قريش أن القرآن الكريم نزل بها . وتقوم هذه الحجة على ما ورد في صحيح البخاري من أن القرآن أنزل بلغة قريش ⁽¹⁰³⁾ . ويحتاج هذا الموضوع دراسة مستقلة به غير أنه تجدر الإشارة إلى أن ما روي عن عمر وعثمان رضي الله عنهما في ذلك إنما هو أخبار وليس أحاديث . والقول بإنزال القرآن بلغة قريش يتنافى مع الحديث المشهور المتواتر الذي رواه أربعة وعشرون صحابياً الذي معناه أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ومن رواه عمر وعثمان وعبدالله بن مسعود ⁽¹⁰⁴⁾ ، وما يروى من قول عمر بن الخطاب لعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما حين كتب إليه " اقرء القرآن بلغة قريش فإنه نزل بها " لا يتناسب مع كون عبدالله بن مسعود مكّي النشأة ⁽¹⁰⁵⁾ وكان حليفاً لبني زهرة منهم . فلهجته إذن مكية وليست هذلية . ولا تتناسب كثير من الأخبار مع ما يرويه البخاري في صحيحه عن عبدالله بن مسعود وأناس من الأنصار إذ كانوا أكثر الصحابة جمعاً للقرآن ⁽¹⁰⁶⁾ .

ويبقى أمر آخر وهو أن مفهوم كلمة " لغة " في الإصطلاح

العربي القديم يجب ألا تؤخذ كي تدل على نظام متكامل من الأنظمة الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية ، بل إنها تستعمل في القديم لكي تحدد نطق كلمة معينة أو استعمالها أو وظيفتها النحوية عند قوم معينين . وهكذا نرى أن تفضيل لغة قريش وتمييزها في الفصاحة عن العرب الآخرين يفتقر إلى الأدلة القوية .

نشأة النحو :

ومن المواضيع التي يظهر فيها التحيز ، الكلام عن نشأة النحو، إذ تربط نشأته بانحلال نظام اللغة العربية نتيجة لتأثير الداخلين في الإسلام من غير العرب ، ويشتهر في المصادر العربية أن أول واضع للنحو كان أبا الأسود الدؤلي ، ثم تختلف المصادر في الذي أوحى إليه بوضعه . يقول ابن جني : " وعلم أنه لم يوفق لاختراعه (أي النحو) ، وابتداء قوانينه وأوضاعه إلا البر عند الله سبحانه ، الحظيظ بما نوه به ، وأعلى شأنه ، أولاً يعلم أن أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه هو البادئة ، والمنبه إليه ، والمنشئه والمرشد إليه، ثم تحقق ابن عباس رضي الله عنه واكتفال أبي الأسود رحمه الله إياه .." (107).

كما ترى بعض المصادر أن أمير العراق زياداً هو الذي طلب من أبي الأسود وضع النحو ، فيروي ابن الأنباري خبراً هو : "حدثني أبي قال : حدثنا أبو عكرمة قال : قال العتيبي : كتب معاوية إلى زياد يطلب عبيد الله ابنه ، فلما قدم عليه كلمه فوجده يلحن ، فردّه إلى زياد ، وكتب إليه كتاباً يلومه فيه ، ويقول : أمثل عبيد الله يضيع ؟ فبعث زياد إلى أبي الأسود فقال له : يا أبا الأسود ، إن هذه الحمراء

قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب فلو وضعت شيئاً يصلح به الناس كلامهم ويعربون به كتاب الله ⁽¹⁰⁸⁾ كما يروى أيضاً أن صاحب المبادرة في وضع النحو هو أبو الأسود نفسه ، إذ جاء إلى زياد بالبصرة فقال : " إني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم وتغيرت ألسنتهم أفأذن لي أن أضع للعرب كلاماً يعرفون أو يقيمون به كلامهم ؟ قال : لا . فجاء رجل إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير ، توفي أبانا وترك بنونا . فقال زياد توفي أبانا وترك بنونا ؟ ادع لي أبا الأسود . فقال ضع للناس الذي فهمت أن تضع لهم " ⁽¹⁰⁹⁾ . وقال ابن الأنباري أيضاً : " حدثني أبي قال : حدثني عمر بن شبة قال : دخل الشعبي مسجد الكوفة وعدة من الموالي يعلمون العربية ، فقال : نعم أصلحوا لسانهم فإنكم أنتم أفسدتموه " ⁽¹¹⁰⁾ .

فتربط هذه الأخبار وغيرها مما يشبهها إذن بين نشأة النحو واضطراب لغة العرب بسبب أثر الأعاجم . غير أننا عندما ندرس المصادر نفسها نرى أنها تورد أخباراً أخرى تعود إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين يحث فيها على توقي اللحن . فيقول ابن الأنباري : " وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وتابعيه رضي الله عنهم من تفضيل إعراب القرآن والحث على تعلمه وذم اللحن وكراهيته ما وجب به على قراء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلمه " ⁽¹¹¹⁾ ثم يورد أحاديث وآثاراً كثيرة في ذلك ⁽¹¹²⁾ وتدل هذه الأخبار والآثار بمجموعها أن اللحن لم يظهر بتأثير الأعاجم ، بل إن العرب أنفسهم وقبل أن يختلطوا بهم كان يظهر في أدائهم للقرآن خروج عن قوانين لغته مما أصبح يعد لحناً فيما بعد .

ولا يعقل أبداً أن ينحل نظام اللغة ويتغير بهذه السرعة وفي فترة لا تتجاوز ثلاثين سنة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . ولا نعدم بعض الإشارات في المصادر العربية التي توحى بوجود لغة غير معربة عند العرب إلى جانب اللغة العربية الفصحى ، ومن ذلك ما يرويه ابن سلام في سياق الحديث عن أبي الأسود : " وإنما قال ذلك (يعني أبا الأسود) حين اضطرب كلام الناس فغلبت السليقية ، ولم تكن نحوية . فكان سراة الناس يلحنون ووجوه الناس " (113) ويفسر صاحب اللسان " السليقي " من الكلام بأنه " ما لا يتعاهد المرء إعرابه ، وهو فصيح بليغ في السمع ، عثر في النحو ، وذلك حين يسترسل المتكلم على سليقته ، أي سجيته وطبيعته ، من غير تعمد إعراب ، ولا تجنب لحن " . ويدل نص ابن سلام على أن " السليقية " أي اللغة التي لا تعرب كانت موجودة ، إنما الذي حدث في تلك الفترة هو تغلبها وشيوعها .

إن القول بأن العرب قبل اختلاطهم بالعجم كانوا يتكلمون كلهم لغة معربة قول فيه كثير من المبالغة . فإضافة إلى النصوص المتقدمة التي تدل على أن العرب كانوا لا يقيمون الإعراب في قراءاتهم للقرآن أحياناً نجد نصوصاً توحى بأن اللغة التي تمثلها النصوص الشعرية لم تكن لغة الخطاب اليومي . ومن النصوص المهمة في هذا الشأن ما يرويه أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي البصري تعليقاً على بيت لكعب بن عمرو التميمي هو :

جانيك من يجني عليك وقد تُعدي الصحاح مبارك الجربُ

قال : " أنشدني داؤود أحد بني ذؤيب (بن كعب) وغيره : (الصحاح مبارك الجرب) فرفعوا (مبارك) وجروا (الجرب) وذلك

إقواء . وقال أبو الخطاب (الأخفش الأكبر ، أستاذ سيبويه) : إن عامة أهل البدو ليست تفهم ما يريد الشاعر ولا يحسنون التفسير ، وإنما أتى إقواء هذا من قلة فهم الذين روه . وإنما عنى الشاعر (وقد يُعدي الأجرب الصحيح مبركاً ، فلما وجدوه مقدماً ومؤخراً لم يحسنوا تلخيصه ووجدوا (مبارك) لا ينصرف فأظلم المعنى عليهم وإنما أراد (وقد تعدي الصباح مبارك الجرب) . (كذا) ⁽¹¹⁴⁾ .

فیدل هذا النص على أن الأخفش الذي شافه العرب كما يقال لا يرى أن عامة البدو يحسنون اللغة الفصحى . وإذا كانوا لا يحسنونها فإنما يدل على أن إحسانها مقصور على فئات خاصة منهم هم الشعراء والرواة ، أما عامتهم فلفتهم تختلف عن هذه اللغة .

كما أن بعض المصادر الأخرى تؤكد تفاوت العرب في فهم القرآن الكريم والشعر والخطب . يقول الباقلاني : " وكذلك لا يعرف المتوسط من أهل اللسان (العربية) من هذا الشأن (إعجاز القرآن) ما يعرفه العالي في هذه الصنعة . فربما لا يعرف المتناهي في معرفة الشعر وحده ، أو الغاية في معرفة الخطب والرسائل وحدهما غور هذا الشأن ما يعرف من استكمال معرفة جميع تصارييف الخطاب ووجوه الكلام وطرق البراعة " ⁽¹¹⁵⁾ .

كما أن القول بأن الأعاجم كانوا سبب اللحن يوحى بأن العلماء اكتشفوا شيئاً جديداً غير مألوف لهم في كلام العرب ، غير أن هذه الأقوال تعود إلى فترة سابقة على جمع اللغة . وحتى بعد جمع اللغة يعترف أولئك العلماء أن كثيراً مما قالته العرب لم يجمع . ومن الأقوال المشهورة في ذلك ما يروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : " ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم "

علم وشعر كثير" (116). فلعل مما لم يعتد به جامعو اللغة أنواعاً منها لا تخضع للمقاييس التي وضعوها أولاً . وبين ذلك ما روي عن أبي عمرو نفسه : قال الزبيدي : " قال ابن أبي سعد : قال ابن نوفل : سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء : أخبرني عما وضعت مما سميته عربية ، أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ فقال : لا ، فقلت كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ قال : أعمل على الأكثر ، وأسمي ما خالفني لغات" (117) .

كما يروى عن عيسى بن عمر معاصر أبي عمرو بن العلاء خبراً مثل ذلك : " قال : وقلت له يوماً خبرني عن هذا الذي وضعت ، يدخل فيه كلام العرب كله ؟ فقال : لا ، قال : قلت فمن تكلم بخلافك ، واحتذى على ما كانت العرب تتكلم به ، أترأه محطناً؟ قال : لا ، قلت : فما ينفع كتابك" (118) .

ويروى أيضاً عن أبي عمرو أنه لو أجاز كل شيء لأجاز ما يخرج على الإعراب .

وإلى جانب هذه الأدلة فإنه يجب أن نلاحظ أنه إذا أمكن تفسير ظهور اللحن في الحواضر بتأثير الأعاجم فإنه لا يمكن أن يفسر هذا العامل ابتعاد اللهجات في بوادي الجزيرة عن نظام الإعراب منذ القديم وذلك ما يصوره نص لابن جني يقول فيه : " وقد كان طراً علينا أحد من يدعي الفصاحة ، ويتباعد عن الضعفة الحضرية ، فتلقينا أكثر كلامه بالقبول له ، وميزناه تمييزاً حسن في النفوس موقعه ، إلى أن أنشدني يوماً شعراً لنفسه يقول في بعض قوافيه : اشئوها وأداؤها ، فجمع بين الهمزتين كما ترى ، واستأنف من ذلك ما لا أصل له ولا قياس يسوغه ، وعلى أن هذا الرجل الذي أومأت إليه من أمثل من

رأيناه ممن جاء مجيئه ، وتحلى عندنا حليته . فأما ما تحت ذلك من مرذول أقوال هذه الطوائف فأصغر حجماً ، وأنزل قدراً أن يحكى في جملة ما ينثي ⁽¹¹⁹⁾ .

كما لا يفسر أننا نجد اليوم في كثير من اللهجات العربية كثيراً من الظواهر التي أوردتها المصادر القديمة على المستويات اللغوية كافة من صوتية وصرفية ونحوية ومعجمية ودلالية . وهو ما يعني أن هذه اللهجات المعاصرة ليست إلا استمراراً للهجات كانت موجودة ولم تكن انحلالاً للفصحى .

وخلاصة القول فإن الوضع اللغوي في صدر الإسلام وعصر الدولة الأموية قد لا يكون على الصورة التي توردها كثير من المصادر العربية ، إذ أن هناك إشارات واضحة تدل على أن الوضع اللغوي في تلك الفترة مشابه للوضع اللغوي في العصر الحاضر . ويتميز هذا الوضع بوجود لغة أدبية تستعمل في الشعر والخطب والكتابة ، ويوجد إلى جانبها لهجات تختلف عنها في سماقتها تستعمل في الحياة اليومية .

أما نشأة النحو فإنه قد لا يكون سببها انحلال الإعراب واضطراب اللغة . أما أسبابها فكثيرة . ومنها أن الدول عندما تقوم يكون من أول اهتماماتها اللغة ، فهي أحد العناصر المهمة في إرساء كيان الدولة . وقد كان اهتمام المسلمين باللغة مبكراً ؛ إذ تروي المصادر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترط على أسرى المشركين بعد معركة بدر ممن لا يملك من يفدي به نفسه أن يعلم عشرة من المسلمين الكتابة ⁽¹²⁰⁾ .

ومنها أن القرآن كان محور الحياة ؛ فلا بد من قراءته وتفهم

معانيه وذلك ما يقتضي معرفة القوانين التي تضبطه . واهتمام عمر بن الخطاب بالشعر مشهور ؛ إذ رأى فيه معيناً على معرفة القوانين التي تضبط النص القرآني . كما أن شهرة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في هذا المجال لا تخفى على أحد . ويروي ابن سعد أن زر بن حبيش الأسدي كان أعرب الناس وكان عبدالله (بن مسعود) يسأله عن العربية ⁽¹²¹⁾ . كما يوصف جبر بن حبيب " بأنه عالم باللغة بصيراً بها " ⁽¹²²⁾ .

فالنشاط الذي تركز حول القرآن والحديث والفقه والقراءات كفيل بأن ينشأ عنه اهتمام باللغة . ولذلك كان جمع اللغة منصباً منذ البداية على جمع أمثلة تشبه القرآن والحديث في النظام اللغوي الذي تخضع له ؛ ولم يهتم بغير ذلك من النماذج . وشيئاً فشيئاً أخذ النشاط يزداد حتى نشأ النحو .

وحق لو قلنا إن الأعاجم كانوا السبب في نشأة النحو ، فإنه يجب أن ننظر إلى هذه المسألة من زاوية أخرى بعيدة عن التحيز . فيمكن أن يقال إن من الأسباب التي دعت إلى تأسيس النحو أن العرب بدأوا في تعليم لغتهم التي هي لغة رسالتهم إلى غير المتكلمين بها وليس بسبب الخوف على اللغة . وربما ساعد على التصور خيراً يرويه الزبيدي هو : قال ابن أبي سعد : " حدثنا علي بن محمد الهاشمي ، قال : سمعت أبي يذكر ، قال : كان بدء ما وضع أبو الأسود الدؤلي النحو أنه مر به سعد وكان رجلاً فارسياً قدم البصرة مع أهله ، وهو يقود فرسه فقال : مالك يا سعد ؟ ألا تركب ؟ فقال : فرسي ضالع ، فضحك من حضره ، قال أبو الأسود : هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام ودخلوا فيه ، وصاروا لنا إخوة ، فلو علمناهم الكلام ، فوضع باب الفاعل والمفعول ، لم يرد علي عليه " ⁽¹²³⁾ .

إن هذه النظرة الموضوعية لنشأة النحو والوضع اللغوي في صدر الإسلام وحكم بني أمية ربما كانت أقرب إلى الحقيقة من النظرة التقليدية التي تلوم الأعاجم على انحلال نظام الفصحى وتجعلهم سبباً مباشراً في نشأة النحو .

دواعي التحيز اللغوي في القديم :

يبدو أن هناك أسباباً معينة لشيوع التحيز اللغوي في المصادر القديمة . ومن هذه الأسباب أن كثيراً منه جاء ثمرة للصراع العرقي بين الشعوب الإسلامية . فقد سيطر العرب بدينهم ولغتهم على الشعوب التي فتحوها . ولما لم يكن يجرؤ كثير من هؤلاء على الطعن في الإسلام إما لقبولهم له عن قناعة أو للخوف من عواقب ذلك الطعن ، فقد اتجه كثير منهم إلى الطعن على جنس العرب ولغتهم وعاداتهم وطرق معيشتهم . وقد قابل العرب هذا الطعن بالدفاع عن أنفسهم وعن لغتهم والطعن بالمقابل على غير العرب .

وكان هذا الصراع قوياً في العصر العباسي ؛ ولذلك نجد آثاره في كثير من المؤلفات . بل إن بعض المؤلفات تنص على أن الدافع لتأليفها كان الدفاع عن العرب واللغة العربية . ومن ذلك ما يقوله ابن دريد في مقدمة كتابه الاشتقاق : " وكان الذي حدانا على إنشاء هذا الكتاب أن قوماً ممن يطعن على اللسان العربي وينسب أهله إلى التسمية بما لا أصل له في لغتهم ، وإلى ادعاء ما لم يقع عليه اصطلاح من أوليتهم ، وعدوا أسماء جهلوا اشتقاقها ولم ينفذ علمهم في الفحص عنها " ⁽¹²⁴⁾ . ولذلك فإن قصده في كتابه أن يبين أن العرب عندما تسمي فإنما كانت تتبع أصولاً محددة وليس كما يدعي

الشعوبيون ويستشنعون . كما يتبين هذا الدافع بوضوح في كتب الجاحظ⁽¹²⁵⁾ . وكتاب إعجاز القرآن للباقلاني ، والجرجاني في دلائل الإعجاز⁽¹²⁶⁾ ، والتوحيد⁽¹²⁷⁾ ، وابن جني⁽¹²⁸⁾ .

والذي يشهد على قوة السجل العرقي وأثره في شيوع التحيز اللغوي أن نرى فخر الأجناس بلغاتها كان واحداً من الأمور التي تذكر في معرض مفاخر كل جنس . ومن ذلك ما نجده عند الجاحظ في رسالة مناقب الترك ، وفي فخر السودان على البيضان ، وفي كتاب الحيوان في عدة مواضع . كما أنه شاع وضع الأحاديث في هذا الشأن . فبعضها في الثناء على العرب وبعضها في الثناء على غيرهم من الأجناس⁽¹²⁹⁾ .

كما أن العوامل السياسية والدينية قد تكون وراء شيوع الثناء على لغة قريش . بل إن ذلك تجاوز اللغة إلى الثناء على قريش بمجملها وعلى بني هاشم خاصة بما يتجاوز حدود المعقول . ومن ذلك ما يقوله الجاحظ : " أنه رفعت بركة ملكهم الطوابع والموتان الجارف ، وأن أكثر ما يلدن الأولاد دون البنات⁽¹³⁰⁾ " وأنه لم يوجد قط في أطفالهم طفل يحبو ، بل يزحف لثلا ينكشف منه شيء يسوؤه ونساء قريش يحكى أنهن يلدن بعد سن الستين⁽¹³¹⁾ .

وقد وضعت هنا كثير من الأحاديث التي تثنى على قريش⁽¹³²⁾ .

وينبغي ألا نستغرب وجود هذه الأخبار فقد كان الوضع في الحديث والشعر واللغة منتشراً في تلك الفترة . وشهادة المعاصرين لذلك مهم جداً أخذها في الاعتبار . ومن تلك الشهادات شهادة ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات فحول الشعراء . فهو يقول : " وفي

الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ، ولا حجة في عربية ، ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب ، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر معجب ، ولا نسيب مستطرف ، وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب . لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء " (133) .

وقد ذكر محمد بن سلام بعض الذين أفسدوا الشعر وهجنوه وحملوا كل غناء منه ، ومنهم محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مخزومة بن المطلب بن مناف ، فقد كتب " في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة " (134) .

ويقول : " فلما راجعت العرب رواية الشعر ، وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم . وما ذهب من ذكر وقائعهم . وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسنة شعرائهم . ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار التي قيلت " (135) .

ويقول : " وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها : حماد الراوية . وكان غير موثوق به ، وكان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ويزيد في الأشعار " (136) .

ويقول : " سمعت يونس يقول : العجب ممن يأخذ عن حماد ، كان يكذب ويلحن ويكسر " (137) ، ويعلق على أبيات حملت على لبس بقوله : " ولا اختلاف في أن هذا مصنوع تكثر به الأحاديث ، ويستعان به على السهر عند الملوك ، والملوك لا تستقصي " (138) .

وهذه الأقوال تزيد ما ذهبنا إليه من أن كثيراً من الأخبار والأحاديث التي تفضل قريشاً لا تصح . وذلك لوفرة دواعي الوضع .

ومن الجدير بالذكر هنا أن العلماء العرب القدماء لم يكونوا دائماً متحيزين . إننا نجدهم إذا لم يكونوا تحت تأثير العوامل السابقة متحررين في نظرهم إلى اللغة وبعيدون عن قصر الفصاحة على العرب أو فريق منهم . ومن الأمثلة على ذلك ما نجده عند الجاحظ الذي رأينا تحيزه فيما سبق فيقول الجاحظ : " والإنسان فصيح ، وإن عبر عن نفسه بالفارسية أو بالهندية أو بالرومية . وليس العربي أسوأ فهماً لمطبعة الرومي من الرومي لبيان لسان العرب . فكل إنسان من هذا الوجه يقال له فصيح . فإذا قالوا : فصيح وأعجم ، فليس هذا المعنى يريدون ، إنما يعنون أنه لا يتكلم العربية ، وأن العرب لا تفهم عنه " (139) . ويقول : " ولكل نصيب من النقص ، ومقدار من الذنوب ، وإنما يتفاضل الناس بكثرة الخاسن وقلة المساوىء . فأما الاشتمال على جميع الخاسن ، والسلامة من جميع المساوىء دقيقتها وجليلها وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يعرف " (140) .

وعلى الرغم من تحيزه إلى قريش وفصاحة لغتها ، فإننا نجده في كتاب البيان والتبيين يصف غير قريش بالفصاحة ولا يقصرها على أي قبيل . ومن ذلك قوله : " ولأباد وتميم في الخطب خصلة ليست لأحد من العرب ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جملة بعكاظ وموعظته ، وهو الذي رواه لقريش والعرب ، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه . وهذا إسناد تعجز عنه الأماني ، وتنقطع دونه الآمال " (141) . كما يقول : " وكذلك ليس لأحد في ذلك مثل الذي لبني تميم : لأن

النبي عليه السلام لما سأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر ، قال: " مانع لحوزته ، مطاع في أدنيه . فقال الزبرقان : أما إنه قد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدي شرفي . فقال عمرو : أما لئن قال ما قال فوالله ما علمته إلاّ ضيق الصدر ، زمر المروءة ، لئيم الحال ، حديث الغنى .

فلما رأى الإنكار عن عيني رسول الله قال : يا رسول الله ، رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ؛ وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الآخرة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : إن من البيان لسحراً" (142) . ويورد كذلك ما قاله معاوية رضي الله عنه للأحنف بن قيس " لقد أوتيتم تميم الحكمة مع رقة حواشي الكلم" (143) ، ويقول : " وشأن عبد القيس عجب ، وذلك أنهم بعد محاربة زياد تفرقوا فرقتين : فرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وهم خطباء العرب . وفرقة وقعت بالبحرين وشق البحرين وهم أشعر قبيل في العرب ، ولم يكونوا كذلك في سرّة البادية وفي معدن الفصاحة ، وهذا عجب" (144) . وقوله : " وأنا أقول : إنه ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا آتق ، ولا ألد في الأسماع ، ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويماً للبيان ، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء والعلماء البلغاء" (145) .

ويمكن أن يضاعف عدد هذه النصوص من كتابه هذا وكتبه الأخرى التي لا ترى الفصاحة مقصورة على قبيلة معينة . فهو يذكر فصحاء الأعراب وفصحاء الحضر وفصحاء الحجازيين وفصحاء النجديين إلى غير ذلك . وكذلك ما ورد في الأغاني عن خلف الأحمر:

" أخبرني المهلي والجوهري قالا : حدثنا عمر بن شبة قال : سمعت خلاداً الأرقط يقول : سمعت خلفاً الأحمر يقول : " لا يعرف من أشعر الناس ، كما لا يعرف من أشجع الناس ، ولا من كذا ولا من كذا ، لأشياء ذكرها خلف ونسيتها أنا . أبو زيد عمر بن شبة يقول هذا " (146) ، ولعل من هذه الأشياء من هو أفصح . وكذلك ما يقوله ابن جني عن تساوي لغات العرب في حجيتها .

روى صاحب الأغاني ج 10 ص 83 قال : " أنشدنا مروان بن أبي حفصة يوماً شعر زهير ثم قال : زهيرٌ والله أشعر الناس ، ثم أنشد للأعشى فقال : الأعشى أشعر الناس ، ثم أنشد شعراً لامرئ القيس فقال : امرئ القيس أشعر الناس ، ثم قال : والناس والله أشعر الناس أي أن أشعر الناس من أنشدت له فوجدته قد أجاد ، حتى ينتقل إلى شعر غيره " .

فيجب ألا نتق دائماً في ألفاظ التفضيل هذه كل الثقة .

فأبو عمرو يروى عنه ثلاثة أخبار في كل واحد منها يفضل قبيل .

ومثل ذلك ما نجده عند ابن حزم إذ يقول : " وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات وهذا لا معنى له لأن وجوه الفضل معروفة ؛ وإنما هي بعمل أو اختصاص ولا عمل للغة . ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة وقد قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم) وقال تعالى : (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون). فإخبار تعالى أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلاّ ليفهم قومه عليه السلام لا لغير ذلك . وقد غلط في ذلك جالينوس فقال : إن لغة اليونانيين أفضل اللغات لأن سائر اللغات إنما تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع .

قال علي : وهذا جهل شديد لأن كل سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها فهي عنده في النصاب الذي ذكر جالينوس لا فرق .

وقد قال قوم : العربية أفضل اللغات لأنه بها نزل كلام الله تعالى ، وقال علي : وهذا لا معنى له ، لأن الله عز وجل قد أخبرنا أنه لم يرسل رسولاَ إلاّ بلسان قومه . وقال تعالى : (وإن من أمة إلاّ خلا فيها نذير) ، وقال تعالى : (وإنه لفي زبر الأولين) . فبكل لغة قد نزل كلام الله تعالى ووحيه ، وقد أنزل التوراة والإنجيل والزبور وكلم موسى عليه السلام بالعبرانية . وأنزل الصحف على إبراهيم عليه السلام بالسريانية . فتساوت اللغات في هذا تساوياً واحداً " (147) .

ويبلغ ابن خلدون حداً أبعد من كل ما سواه في موقفه من اللغة التي كانت تستعمل في عصره ، فيقول : " وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد . ولا تلتفت في ذلك إلى خرفشة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت ، وأن اللسان العربي فسد اعتباراً بما وقع أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه . وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم وألقاها القصور في أفئدتهم " (148) .

بل يزيد على ذلك ليرى إمكان إحلال قواعد جديدة لتضبط اللغة المعاصرة التي تخلو من الإعراب ، فيقول : " ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد ، واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية التي فسدت في دلالتها بأمور أخرى وكيفيات موجودة فيه ، وتكون لها قوانين تخصها ؛ ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر . فليست اللغات وملكاتهما مجاناً " (149) .

وخلاصة القول إنه يجب أن نرى الآراء المتحيزة للغة العربية في المصادر القديمة في سياقها الزمني والثقافي وألاّ تؤخذ على أنها حقائق ثابتة ؛ وذلك أننا نجد المصادر المتحيزة نفسها في بعض الأحيان تعود إلى النظر إلى هذه الأمور بموضوعية .

التحيز اللغوي في العصر الحاضر :

تمتلىء الدراسات العربية في العصر الحاضر بظواهر التحيز التي رأيناها في المصادر العربية القديمة . فلا تخلو الكتب التاريخية واللغوية والأدبية والمجلات المتخصصة وغير المتخصصة والجرائد والندوات والمحاضرات من أنواع التحيز هذه أو بعضها . وتختلف هذه الدراسات بعضها عن بعض في الكيفية التي توجد فيها . فبعض هذه الدراسات يحتوي على هذه التحيزات بصفتها التقريرية المنقولة عن المصادر العربية القديمة . وهذا النوع أكثر من أن يحصى . أما بعضها الآخر فتظهر فيه على شكل نظريات يبحث لها عن براهين وشواهد لتدعيمها .

والملفت للنظر في الوقت الحاضر أن هذا التحيز لا ينظر له عندما يكون تحيزاً للغة العربية وحسب ، بل ينظر له إذا كان تحيزاً ضد اللغة العربية أيضاً . ويمكن أن تناقش هذه الظاهرة في جوانبها المتحيزة للغة العربية أولاً ثم في جوانبها المتحيزة ضد اللغة العربية . وسوف أعرض بعض الأمثلة التي تمثل كلا الاتجاهين فيما يلي :

اللغة العربية أم اللغات :

تأثرت الدراسات المتعلقة بالعربية في العصر الحاضر

بالنظريات اللسانية التي جددت في الغرب . وكما رأينا فقد كانت الدراسة اللسانية في أحد جوانبها المهمة في أوروبا مهمة بالتأريخ للغات وتتبع الأصول التي تفرعت عنها . ومن أوجه التأثير بالغرب في هذه الناحية أننا نجد كتباً ألفت في التأريخ للغة العربية على النمط نفسه .

وهناك ثلاثة كتب في الأقل تزعم أنه يمكن أن يبرهن على أن اللغة العربية أقدم اللغات وأنها الأصل الذي تفرعت منه اللغات الأخرى .

وأول هذه الكتب كتاب الأب أنستاس ماري الكرملّي "نشوء اللغة العربية ونموها واكتهاها" . يقول في تصديره لكتابه : "هذا بحث لغوي ، جرى فيه على الأسلوب الحديث تمحيصاً للحقيقة ، ودفاعاً عن اللغة المضرية ، وإيضاحاً لما فيها من دقائق الأوضاع . وخفياً الأسرار ، وغوامض الحروف ، وخصائصها ، وبدائع الصيغ وأوزانها ، وما فيها من مختلفات لغى القبائل ، متوقفاً البلوغ به إلى الحق ، غير مبتغ أجراً ولا شكوراً ؛ إنما كل أمنيقي خدمة العربية ، وحمل أبنائها على السير في مثل هذا المنهج ، ليعلم غيرهم أن لسان العرب فوق كل لسان ، ولا تدانيها لسان أخرى من ألسنة العالم جمالاً ، ولا تركيباً ولا أصولاً ، ولا ولا ولا" (150) .

ويتكون الكتاب من تسعة وثلاثين فصلاً يعرض فيها الكرملّي آراءه مقارناً بين اللغات ، مرجعاً كثيراً من الكلمات في لغات عديدة إلى أصول عربية . ويذكر أن من أسباب عدم اهتمام المستشرقين بهذه الحقيقة أنهم " لا يريدون أن يكون بين العربية وبين لغاتهم أدنى صلة ، أو مجانسة ، أو ملابسة ، أو مشابهة ، خوفاً من أن يقال لهم ، أو

أن نقول لهم نحن العرب : بيننا وبينكم ، يا قوم، لحمة نسب قديم ،
وصلة رحم ؛ وهو مما يتبرأون منه ، وينبذونه من مسامعهم ، بل
ينفضون ثيابهم عند سماع هذه الكلمات ، كأنها تدنسهم ، وتدنس
ثيابهم ، بل لا يريدون أن يتصوروا مثل هذه الفكرة ، الهادمة لأبنيتهم
المتصدعة المتشققة ، تلك الأبنية التي أقاموها منذ أن وضع أسسها
إمامهم الألماني الأكبر مكس مَلَر " (151) .

ولست أريد هنا مناقشة ما في الكتاب من آراء أو
اشتقاقات ، وسوف أرجىء هذا إلى ما بعد الفراغ من الكتابين
الآخرين .

والكتاب الأول لمؤلف هندي اسمه محمد أحمد مظهر وعنوانه "
العربية : أصل اللغات كلها " . ويؤسس المؤلف كتابه على توقع
لمرجع الطائفة الأحمدية التي ظهرت في الهند ، فيقول ما ترجمته:
" زعم حضرة ميرزا غلام أحمد ، المسيح الموعود ، أن اللغة العربية أم
اللغات كلها ، وكان زعمه مبنياً على المعرفة التي أوحيت إليه " (152) .
كما يشير إلى أن حضرة ميرزا غلام أحمد ألّف كتاباً سنة 1895م أسماه
"منن الرحمن " حاول فيه البرهنة على هذا القول مستدلاً بعدد من
الآيات القرآنية . ويحدد ميرزا رأيه في كلمة ألقاها في مؤتمر الأديان
الكبرى الذي عقد في لاهور سنة 1896م بقوله : " لقد بينا في كتابنا
" منن الرحمن " أن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي تستطيع القول
بأنها اللغة الإلهية ، اللغة التي تنبثق منها كل أنواع المعرفة ، واللغة الأم
لكل اللغات ، والوسيط الأول والأخير لحمل الوحي الإلهي . فهي
الأولى لأنها كلمة الله الأولى ، ولأنها اللغة التي تعلم البشر أن يصوغوا
لغاتهم منها ، كما أنها الأخيرة لأن كتاب آخر الرسائل السماوية
أي القرآن كان باللغة العربية " (153) .

ولتأكيد هذا الرأي يؤلف مظهر هذا الكتاب ، والأدلة التي أتى بها تقوم على بعض المبادئ التي ذكرها في المقدمة ، وهي :

1 وجود قوانين محددة عن طريقها اشتقت اللغات كلها جذورها من اللغة العربية .

2 أن هذه القوانين واضحة وبسيطة ، كما أنها مقبولة في الدراسات الفيلولوجية ، لكن الغربيين لم يحاولوا تطبيقها على العربية .

3 أنه يمكن تطبيق هذه القوانين على اللغات كلها إذا قسنا جذور الكلمات في كل اللغات إلى عشرة أقسام⁽¹⁵⁴⁾ .

ويتكون الكتاب من ثلاثة أبواب : ويتكلم في الباب الأول عن مسألة النقاش في أصل اللغة . ويتفرع النقاش فيه إلى سبب تجاهل الأوروبيين للكلام عن اللغة العربية عندما يناقشون مسألة أصل اللغة ، ويدلل من بعد على أن اللغة العربية عالمية وأنها لغة منضبطة ، وأنها أحسن اللغات . ثم يتكلم عن المبادئ التي اتبعها في اشتقاق جذور الكلمات في اللغات المختلفة من اللغة العربية .. إلخ .

وفي الباب الثاني يحلل الكيفية التي اشتقت بها اللغات جذورها من العربية . ويتكون الباب الثالث من قاموس للجذور من مختلف اللغات وأصولها العربية .

أما القوانين التي تحكم تغير الجذور العربية إلى الجذور المقابلة لها في تلك اللغات فهي عشرة :

1 أن جذر الكلمة يمكن أن يكون من ثلاثة أصوات ساكنة .

2 أنه يمكن أن يتكون من صوتين ساكنين .

3 أنه يمكن أن يتكون من صوت ساكن واحد .

4 أنه يمكن أن يتكون من واحد من أصوات اللين (الألف والواو والياء) .

وهذه هي الجذور الأساسية في العربية التي يمكن أن تغير في اللغات الأخرى ، وذلك بتغيير ترتيبها أو بالزيادة عليها أو النقص منها بحسب القوانين الستة الأخرى وهي :

5 قلب الجذر الثلاثي .

6 قلب الجذر الشائي .

7 الزيادة في أول الجذر .

8 الزيادة في نهاية الجذر .

9 إبدال صوت في جذر الكلمة العربية بصوت آخر في الموضع نفسه .

10 حذف صوت من بداية الجذر العربي في نظيره غير العربي⁽¹⁵⁵⁾ .

ويمكن أن نلاحظ هنا أن القوانين هذه لن يصعب عليها تغيير أي كلمة في أي لغة إلى أي صيغة نريدها ، ولذلك لن أتوقف عند مناقشة تحليله .

والكتاب الثاني هو من تأليف تحية عبدالعزيز إسماعيل بعنوان : " اللغة العربية الفصحى ، أم اللغات الهندية والأوروبية وأصل الكلام " . وقد نشر في القاهرة سنة 1989م⁽¹⁵⁶⁾ . وهذا الكتاب على الرغم من الضجة التي قامت حوله لا يستحق أي تعليق ، وذلك لأنه مكتوب بلغة إنجليزية ركيكة جداً وهو الأمر الذي أدى إلى الغموض في كثير من النقاط التي نوقشت . هذا أولاً . وثانياً لأنه يفقد أدنى درجات التخطيط المنهجي الذي رأيناه في الكتاب السابق .

فهو يدخل مباشرة في معالجة الموضوع من غير أن يرسم لنا أهداف البحث والطرق التي يتبعها في معالجة القضايا المطروحة ، وثالثاً ، هو ملآن بالأخطاء التاريخية عن اللغة العربية ذاتها . ومن ذلك ما تذكره المؤلفة في المقدمة من أن النحويين العرب في القرن السابع الميلادي سجلوا كل كلمة نطقها العرب . وهذا القول ليس صحيحاً لأن اللغويين العرب لم يبدأوا في تسجيل الشعر العربي ومتن اللغة إلا في القرن الثامن ثم إنهم باعترافهم لم يسجلوا مما قالت العرب إلا أقله ، كما قال أبو عمرو بن العلاء .

واستخدامها للرموز الصوتية في رسم الكلمات ليس دقيقاً كما أنه لم يكن مطرداً ولم يكن صحيحاً في بعض الأحيان . وكذلك استخدامها لكثير من الاختصارات من غير أن تبينها . ولم تعتمد إلا على قليل من المراجع المعتمدة في مناقشة هذه القضايا . ويمتلىء الكتاب بالثناء على اللغة العربية وذلك مثل قولها : " أن اللغة العربية أرتب اللغات من حيث القواعد وأكثرها اقتصاداً من حيث تركيب الكلمات وقوانين اللغة ، وتلك علامات تدل على رقي اللغة كما أثبت علماء اللغات من قبل . أما اللغات المشتقة منها فقد حاولت تعويض ما فقدت بطريقة عشوائية وغير اقتصادية ، مما أثر على تكوينها وقواعدها وقدرتها على التعبير " (157).

ويجمع هذه الكتب الثلاثة وغيرها أنها غير مقنعة علمياً . وحتى إن صحت هذه المقارنات التي توردها هذه الكتب فإنها لا تفيدنا شيئاً في إثبات أن الأصل لهذه الكلمات كانت الجذور العربية . فأقصى ما يمكن أن تدل عليه إن كانت صحيحة أن هناك تشابهات بين اللغة العربية واللغات الأخرى . كما أنه يمكن النظر إلى هذه التشابهات على أن مصدرها الصدفة المحضة أو اقتراض اللغات

بعضها من بعض على مدى أكثر من ثمانية آلاف سنة من هجرات
الأقوام واحتكاكهم بعضهم ببعض⁽¹⁵⁸⁾. والدليل على أن ما وصلت
إليه هذه الكتب ليس صحيحاً أننا نجد كتباً أخرى تأخذ هذه الأمثلة
نفسها لكي تزعم أن اللغة العربية نفسها مشتقة من لغات أخرى .
ومن ذلك ما يراه لويس عوض من أن اللغة العربية فرع من فروع
أسرة اللغات الهندية والأوروبية⁽¹⁵⁹⁾. وكذلك ما يراه المؤلف التركي
نعيم حازم أونا ، إذ يزعم أن مقارنة الجذور العربية بالجذور التركية
تدل على أن اللغة العربية أخذت أكثر جذورها من جذور من اللغة
التركية⁽¹⁶⁰⁾. بل إن هذا المؤلف يرد في كتابه هذا على كتاب
الكرملي الذي عرضناه هنا .

من التحيزات الأخرى للغة العربية :

يبدو أن مطبوعات الجامعة العربية لها نصيب وافر من إشاعة
التحيز اللغوي في المستوى الثقافي عموماً . ومن المطبوعات التي
تصدرها المراكز التابعة للجامعة ، مجلة اللسان العربي التي تصدر في
الرباط . وفي هذه المجلة على مدى تاريخها عدد كبير من المقالات التي
تبلغ في إعلان ولائها للغة العربية مبلغاً من الحماس يمكن أن يخرجها
عن الموضوعية .

كما أن مجلة شؤون عربية وهي مجلة تصدرها الجامعة يظهر
فيها بين حين وآخر مقالات لها الصفة نفسها . ومن تلك المقالات ما
كتبه سمر روجي الفيصل بعنوان " المشكلة اللغوية العربية " . ويبدأ
تلك المقالة بدق ناقوس الخطر إذ " إن الفصحى تتردى ، والعامية
تتألق ، والتعريب يتلأ ، والسهام في كنانة أعداء الأمة العربية وافرة

جاهزة لتصيب من لغتنا مقتلاً". ثم يجعل هدفاً لمقالاته تلك البحث عن "الجواب الشافي"، والحل الكافي "لهذه المسائل". ثم يستمر في تناول مشكلات اللغة العربية كالإزدواجية اللغوية، ومسألة تيسير العربية والتعريب.

وهي مقالة حماسية يدعو في مقدمتها إلى الحد من انتشار العامية بتعزيز تعلم الفصحى⁽¹⁶¹⁾، وتشجيع معلمي اللغة الفصحى، وأن العامية عاجزة عن توحيد العرب لأن نطقها وفكرها متغيران بحسب البيئات الجغرافية. كما أنها "حملت كثيراً من الفكر التقليدي طوال قرون من الاستعمار والتخلف، فكيف نرتضيها لغة، ونحن نفهم التقدم على أنه تحول في الرؤية وفي الخبرة"⁽¹⁶²⁾.

ثم يناقض نفسه بقوله إننا "لا نخاف من العامية، لأننا لا نراها بعيدة جداً عن الفصحى"⁽¹⁶³⁾، ثم يرجع إلى مهاجمة العامية فيقول: "أن النحو حصن العربية من اللحن الذي فشا إثر الفتوحات، وأنه مازال يؤدي هذه المهمة الجليلة. فإذا أراد دعاة العامية غزو الفصحى لم يكن لهم بد من التشكيك بالحصن الذي يحميها ويحفظ جوهرها"⁽¹⁶⁴⁾. ويعود مرة أخرى ليرى أن واحدة من طرق الإصلاح اللغوي "حقن جسد الفصحى بدماء اللهجات العربية" وإزالة اللبس بين العامية واللهجات، "كما يدعو إلى أن نحرر أنفسنا من القداسة التي أضفيناها على لغتنا"⁽¹⁶⁵⁾.

وهكذا نرى أن معالجته تغلب عليها الحماسة العاطفية والاضطراب والتناقض.

ومن الهيئات العلمية العربية التي تشبه هيئات جامعة الدول العربية في تناول قضايا اللغة العربية تناولاً تغلب عليه في بعض

الأحيان العاطفة والبعد عن التحليل العلمي الدقيق مركز دراسات الوحدة العربية . وكمثال على نوع الدراسات التي تنشر في مطبوعات هذا المركز كتاب محمد المنجي الصيادي " التعريب وتنسيقه في الوطن العربي " ، وعلى الرغم مما يحويه الكتاب من معالجة منهجية في بعض جوانبها لهذه القضية إلا أننا نجد فيه ميلاً إلى تبجيل اللغة العربية بشكل زائد. ومن ذلك أنه يرى أنه يمكن النظر في احتمال أن تكون اللغات الهندية والأوروبية أو الآرية تعود أصولها إلى اللغة العربية⁽¹⁶⁶⁾. كما يتضح ذلك من تنبيه لبعض أفكار عبدالله بن خميس وعبدالحق فاضل عن اللغة العربية والمنشورة في مجلة " اللسان العربي " على الرغم من أن كثيراً من هذه الأفكار ليست إلا تخرصات⁽¹⁶⁷⁾. وكذلك كلامه عن ارتباط العربية بالإسلام⁽¹⁶⁸⁾.

ونجد في بعض الأحيان مقالات في مجلة المركز وهي "المستقبل العربي" تتصف بعدم الموضوعية في مناقشتها لقضية اللغة . ومن ذلك أن عددها 12 لسنة 1987م يتضمن ثلاث مقالات عن هذه القضية تباعد عن النظرة العلمية المنهجية المحايدة في معالجة قضايا العربية . وأول مقالة هي بقلم أحمد الحمو بعنوان " حول واقعنا اللغوي في الماضي والحاضر "⁽¹⁶⁹⁾.

وفي بداية مقاله يرى أن الآيات القرآنية التي تتكلم عن إنزال القرآن الكريم بلسان عربي تؤكد أولوية اللغة العربية على غيرها من اللغات ؛ ويرجع ظهور العاميات إلى انحلال النظام اللغوي الذي تمثله الفصحى نتيجة لدخول الأعاجم في الإسلام ويقول : " يتضح لنا أن اللهجات الدارجة لم تنشأ عن تطور طبيعي في لغتنا ، بل نشأت عن ضياع الشخصية العربية في لجج من البحار الأعجمية "⁽¹⁷⁰⁾. كما

يقول إن " إسقاط الإعراب من اللغة الدارجة لا يعود إلى أسباب عربية ذاتية بحتة ، كما يحلو لبعض الباحثين اعتباره . فكثيراً ما يعتمد هؤلاء إلى مقارنة هذا التطور المؤسف الذي أصاب اللغة العربية بالمنهج الذي سارت عليه بقية اللغات السامية الأخرى ، أو الذي سارت عليه أيضاً اللغات الأوروبية التي تفرعت عن اللغة اللاتينية وهي لغة معربة أيضاً . والثابت تاريخياً أن الإعراب عاش قروناً طويلة في لغة البادية بعد عصر الفتح ، ولا يزال ماثلاً في بعض بقاياها إلى يومنا الحاضر ⁽¹⁷¹⁾ . ثم يرجع كثيراً من الظواهر اللغوية في اللهجات المعاصرة إلى تأثير اللغة الفارسية . ومن ذلك كسر ما قبل آخر الكلمة إذا كانت منتهية بالتاء المربوطة . ولكن أبا عمرو ابن العلاء كان يفعل ذلك وأجاب عندما سئل ؛ إن هذه إمالة العرب . فهي قديمة في اللغة العربية وليست من تأثير اللغة الفارسية . ويقرر أن الاختلاف بين اللغة واللهجة لا يعدو أن يكون اختلافاً أسلوبياً . ويقول إن العاميات العربية اليوم مزيج من " كلمات فصيحة محرفة ومفردات أعجمية وأصول لا تعرف هويتها المعجمية وتشارك هذه العاميات بافتقارها إلى قواعد ثابتة ، سواء على الصعيد الصوتي أو التركيبي أو الدلالي ⁽¹⁷²⁾ .

ويناقض نفسه عندما يرى أن أحد المؤثرات في اللهجات العربية اليوم يمكن ردها إلى الخلافات الموجودة في لهجات القبائل العربية قبل الفتح . ثم يتحدث عن عجز العامية عن حمل مضامين الفكر العلمي الراقي في مقابل قدرة الفصحى على ذلك . ويشيد بقدرة اللغة الفصحى على توفير المصطلحات العلمية بسبب قدرتها على التفرع والاشتقاق .

ويناقض نفسه مرة أخرى في قوله إن الأصوات اللغوية المستعملة في الفصحى مازالت هي ذاتها مستعملة في لهجاتها الدارجة مع أنه قرر من قبل أن كثيراً من الأصوات العربية تغير بسبب الأعاجم .

ثم يتكلم عن واقع الفصحى وأن النحو كان الهدف من نشأته تنقية الفصحى من اللحن الذي أصيبت به نتيجة لاختلاط العرب بالأعاجم . ثم يرى أن يُصلح النحو بطرق معينة مثل عدم المبالغة في تقدير العامل النحوي ، والتخفيف من الاعتماد على القياس ، وأن يُهتم بتدريس الأصوات . وهو في ذلك بين نقيضين ، الشاء على النحويين القدامى ، والتشجيع على بعض آرائهم .

وبالجملة فإن هذه المقالة تتعد عن البحث العلمي للظواهر التي درستها وتدخل في باب التحيز اللغوي .

التحيزات ضد اللغة العربية في العصر الحاضر :

وكما تحيز عدد كبير من الكتاب إلى اللغة العربية نجد أن هناك عدداً كبيراً أيضاً تحيزوا ضدها . ويأتي هذا التحيز ضد اللغة العربية إما من جهل باللغة وكيفية عملها مثل كتابات سلامة موسى وغيره أو من نظرة إقليمية بحتة مع هذا الجهل مثل كتابات سعيد عقل ، أو من جهل وعداء للعرب وتاريخهم وحضارتهم كما هو في كتابات بعض المستشرقين ، أو من تأثر ببعض النظريات الحديثة عن اللغة وصلتها بالفكر .

وسأقصر حديثي هنا على النوع الأخير لأن الأنواع الأولى تكاد تختفي . والهدف من هذا النوع الأخير تبين أن العرب يعانون

ومن أشهر الكتب في هذا المجال كتاب المؤلف الإسرائيلي رافائيل بتاي "العقل العربي". ويحوي هذا الكتاب فصلاً بعنوان "تحت حكم اللغة" (174). ويتتبع فيه تلك الخصائص التي أتى بها شوي ويفسر بموجبها كثيراً من تصرفات العرب المعاصرين .

وقد نقد هذا الكتاب كثير من المفكرين العرب (175)، لكنه يجب ألا يزعجنا وذلك بسبب تأسيسه على فرضية ثبت بطلانها ، بالإضافة إلى أن مؤلفه ليس شخصاً محايداً ، فله أغراض عنصرية غير علمية .

ومن ذلك ما نجده لدى محمد عابد الجابري إذ يرى أن اللغة لها تأثير كبير على نظرة الإنسان إلى الكون ، فيقول : " وإذا أضفنا إلى ذلك ما أكدته دراسات حديثة عديدة من كون اللغة أي لغة تحدد أو على الأقل تساهم مساهمة أساسية في تحديد نظرة الإنسان إلى الكون وتصوره له ككل أو كأجزاء ، لاحظنا أن اللغة العربية ربما كانت اللغة الحية الوحيدة في العالم التي ظلت هي هي في كلماتها ونحوها وتراكيبها منذ أربعة عشر قرناً على الأقل ، أدركنا ما يمكن أن يكون من تأثير لهذه اللغة على العقل العربي ونظرتة إلى الأشياء ، تلك النظرة التي لا بد أن تتأثر قليلاً أو كثيراً ، بالنظرة التي تجربها معها اللغة العربية منذ تدوينها ، أي منذ عصر التدوين ذاته " (176). ويشير صراحة إلى تبنيه آراء سابير في هذه القضية (177). ثم يذهب في نقد علماء النحو واللغة الذين سجلوا اللغة وهو محق في بعض نقده لكن نغمة هذا النقد هي التي يمكن أن تخرجه من حدود الموضوعية .

ويعود في كتابه الآخر " بنية العقل العربي " إلى هذه المسألة فيقول : " وإذا نحن أخذنا بالأطروحة العامة المقبولة الآن لدى علماء

السيمياثيات والأنتولوجيا اللسانية ، والقائلة : " إن منظومة لغة ما (الشيء الذي يعني ليس فقط مفرداتها ، بل أيضاً نحوها وتراكيبها) تؤثر في طريقة رؤية أهلها للعالم وفي كيفية مفصلتهم له وبالتالي في طريقة تفكيرهم أمكن القول إن الكلمة التي يرجع بها إلى معناها اللغوي إنما يطلب مدلولها كما كان يتحدد داخل المنظومة اللغوية التي تنتمي إليها ، وبالتالي فهي لا بد أن تحمل معناها اللغوي قليلاً أو كثيراً من خصائص رؤية أهلها للعالم وكيفية مفصلتهم له وطريقة تفكيرهم في ظواهره وحوادثه " (178).

وهذه الأطروحة كما قدمنا لم تعد قائمة منذ زمن ليس بالقصير . فلذلك لا يمكن البناء عليها . ومن المسائل التي يفسرها بناء على هذه الأطروحة أنه يرى أن غياب مقولة (الملكية) من العربية " هو غياب ينسجم مع التصور العربي الإسلامي الذي يجعل الملك والملكية لله وحده ، فالإنسان لا يملك الأشياء وإنما يتصرف فيها بوصفها من ملكوت الله " (179).

والدليل على أن هذا التحليل لا يصح هو : أن غياب مقولة (الملكية) في العربية سابق على الإسلام ، إذ هو من خصائص العربية من قبل أن يكون هناك تصور إسلامي .

كما يرجع خصائص الزمن في العربية إلى " بيئة العرب الذين جمعت منهم اللغة ، بيئة البادية والصحراء ، إن زمن الصحراء هو زمن الحل والترحال يتجدد بالحوادث والمشاهد والأمكنة وأنواع المعاناة فهو بمثابة مكان للحدث ، تماماً مثلما أن المكان هو موضوع حدوث الشيء " (180).

وعندما يريد الكشف عن (الأصول) الدفينة التي تشد إليها

الصورة (العالمية) للبيان رؤية ومنهجاً فإنه يجدها " في السلطة المرجعية الأولى والأساسية التي تحكم التفكير البياني العربي ، سلطة اللغة العربية. ونحن عندما نقول " اللغة " لا نقصد اللغة كمجرد أداة للتواصل بل اللغة كحامل للثقافة " (181).

وكمثال على تلك المبادئ المرجعية التي تحكم الرؤية البيانية العربية للعالم ، يتحدث عن مبدأ الانفصال ومبدأ التجويز فيرى أن لهما أصلاً في عالم العرب . فإذا " نحن فحسنا بيئة الأعرابي الجغرافية والاجتماعية من زاوية الاتصال والانفصال وجدنا الانفصال يطبع معطياتها : فالطبيعة رملية ، والرمل حبات منفصلة مستقلة ، مثلها مثل الحصى والأحجار والطوب المؤلف منها كل الاجسام في الصحراء وحدات مستقلة ، والعلاقات التي قد تربطها علاقات المجاورة لا التداخل وبالجملة فالعلاقات في مجتمع رعوي هي علاقات انفصال. أما الاتصال فهو من خصائص مجتمع المدينة ومن مميزات البيئة البحرية

من هنا كانت الرؤية البيانية للزمان والمكان ، الرؤية التي تحملها اللغة العربية معها ، رؤية تقوم على الانفصال وليس الاتصال " (182).

وكذلك فإن مبدأ التجويز في الثقافة العربية ينبع من كون "المبدأ الذي يؤسس وعي سكان هذه البيئة لن يكون السببية ولا الحتمية بل سيكون : الجواز ، كل شيء جائز ، الإطراد قائم فعلاً ، ولكن التغير المفاجيء الخارق للعادة ممكن في كل لحظة " (183). وذلك بسبب أنه على الرغم من رتابة الصحراء إلا أنها تتعرض لتغيرات مفاجئة .

إن عمل الجابري النقدي للثقافة العربية في شقها البياني يقوم على أطروحة عن اللغة وصلتها بالفكر ثبت بطلانها ، فلا بد من إعادة النظر في كل الأحكام التي توصل إليها .

ومن أجهل الكتب التي صدرت حديثاً كتاب ألفه اللساني الأمريكي المعاصر ديفد جستس بعنوان : " دلالة الأشكال في اللغة العربية مقارنة باللغات الأوروبية " (184).

ويعرض فيه المؤلف كثيراً من الخصائص التي يعتقد كثير من الناس أنها خاصة باللغة العربية ثم يحلل هذه الخصائص ويقارن اللغة العربية باللغات الأوروبية ويدلل على أن هذه الخصائص التي يراها كثير من الناس خصائص قبيحة خاصة بالعربية موجودة في هذه اللغات التي يزعمون أنها متقدمة وجميلة . ويرد خاصة على آراء شوبي التي عرضنا لها من قبل ويبين أن تلك الخصائص ليست متخلفة أولاً وهي موجودة في اللغات الأخرى ثانياً .

طبيعة التحيز وأثره :

في العرض السابق لبعض أنواع التحيز وجدنا أن الحضارات تتشابه فيها ، ويمكن أن يعد هذا دليلاً على عدم صحتها . إذ لو كانت صحيحة في جوهرها لصح أن توجد بالضرورة في لغة واحدة وحسب . وقد نشأت هذه التحيزات بسبب عوامل عديدة منها العرق : إذ ظنت بعض الأمم أنها عرقياً من سلالة تختلف عن بني الإنسان الآخرين ؛ وكذلك بسبب الدين : إذ ربطت بعض الحضارات بين كتبها المقدسة واللغة التي حملتها ، فرأت أن كون كتابها المقدس مكتوباً بهذه اللغة إنما هو دليل على اختيار إلهي لها .

كما أن الجهل بطبيعة اللغة وعملها لعب دوراً في تغذية هذه التحيزات .

وبعد تقدم العلوم الأحيائية (البيولوجية) ثبت أن الأعراق لا يتميز بعضها عن بعض ؛ وأن التمايز الحضاري إنما يعود إلى أشياء مكتسبة نتيجة لظروف خارجية لا صلة لها بالعرق . وبذلك بدأ يشكك في إسهام هذا العامل في كل المجالات ، ومنها اللغة . وقد أدى التقدم في الدراسات اللسانية كذلك نتيجة للإنتتاح على اللغات المختلفة المتباعدة سلالياً ومكانياً ، إلى نتيجة مماثلة : فقد وجد أن اللغات جميعها أنظمة متكافئة من حيث التعقيد البنيوي ، ومن حيث وفائها بأغراض متكلميها ، بل إن البحث اللساني برهن منذ زمن ليس بالقصير على أن اللغات مهما بدت مختلفة في ظاهرها إنما هي تشكلات لشيء واحد عام لدى بني الإنسان . ومن النظريات اللسانية التي تعمل في هذا الاتجاه منذ أكثر من خمس وثلاثين سنة النظرية التوليدية التي كان اللساني الأمريكي نوام تشومسكي مؤسسها .

أما ارتباط اللغة بالدين ، فإننا نرى القرآن الكريم مع تأكيده على أنه أنزل باللسان العربي إلا أنه يوضح في بعض الآيات أن كونه بهذا اللسان ليس إلا انسجاماً مع السنة الإلهية في مخاطبة الله كل قوم باللسان الذي يتكلمونه . فنزوله باللغة العربية إذن ليس اختصاصاً لها من دون اللغات الأخرى .

ويجب أن يشار هنا إلى أن التخلص من أنواع التحيز هذه لا يعني أبداً الانتقاص من أي لغة ، كما يجب ألا يؤدي إلى إضعاف الانتماء إلى أي واحدة منها .

فاللغة العربية مثلاً نالت مكانة متميزة لنزول القرآن الكريم بها ؛ إذ كان أول نص نثري طويل متكامل فيها يحمل مضامين متميزة لا عهد لهذه اللغة بها . وقد أخرجها هذا النص من كونها لغة محصورة في الجزيرة العربية إلى لغة عالمية كانت في إبان ازدهار الحضارة العربية الإسلامية لغة العلم والحضارة . وهي مقدسة بسبب وجود هذا النص المقدس فيها . فالإنتماء إليها هو انتماء لهذا النص نفسه .

ويجب ألا يؤخذ هذا على أنه تحيز لهذه اللغة ؛ فهذا الانتماء ليس سببه الاعتقاد بأنها تتميز على غيرها من حيث أنظمتها اللغوية ، بل هو انتماء حضاري مشروع بسبب ارتباطها بالثقافة والتاريخ والدين للأمة في خلال ما يزيد على ألف وأربعمائة سنة . وهذا فرق جوهري بين التحيز والانتماء . فالتحيز يقتضي بالضرورة رفع منزلة لغة والغرض في الوقت نفسه من اللغات الأخرى ؛ أما الانتماء إلى لغة معينة فهو انتماء لها ليس لأسباب لغوية ، بل لأسباب حضارية وتاريخية ، وهو لا يقتضي النظر إلى اللغات الأخرى أنها أقل منها . فانتفاء الأقوام الآخرين للغايم بالكيفية نفسها أمر مشروع .

إن لعدم التحيز آثاراً موجبة لا يمكن حصرها : فهو على المستوى الإنساني سيقضي على أحد أسباب التمييز بين البشر ، وسيقود إلى اكتشاف أن البشر متشابهون في هذه الظاهرة التي يشتركون فيها ؛ وقد يقود ذلك إلى إعادة التفكير في كل الظواهر الأخرى التي يظنون أنها تصنفهم إلى فصائل مختلفة .

ومن آثاره على المستوى اللغوي ، أن يتحقق المشتغلون بعلوم اللغة أنه يمكن أن تدرس اللغات جميعها بمناهج واحدة ؛ إذ لا تختص لغة بصفة تخرجها عن إمكان دراستها بهذه المناهج . وقد تحقق تقدم

كبير الآن في هذا الوجه ؛ إذ وجد أن الاختلافات بين اللغات وليدة أسباب قليلة يمكن تحديدها⁽¹⁸⁵⁾.

أما فيما يخص اللغة العربية ، فإن زوال هذه التحيزات سوف يؤدي بنا إلى النظر إليها على أنها إنسانية وحسب ، تشبه غيرها في بنيتها والسنن التي تخضع لها في تركيبها ووظائفها . كما سيؤدي بنا ذلك إلى إعادة النظر إليها نظرة موضوعية واقعية ، تأخذ في الاعتبار تاريخها المشرق وارتباطها الوثيق بالقرآن الكريم ، كما تأخذ في الاعتبار كونها لغة يتكلمها البشر وتؤثر في حياتهم .

ومن أنواع التحيز التي لم أتكلم عنها في العربية ويمكن أن يشار إليها في هذا السياق ، ظاهرة وقف الاحتجاج بعد سنة 150 للهجرة في الحاضرة و400 في البادية . فقد كان منهج العلماء العرب الأوائل في جمع اللغة منهجاً محكوماً بظروف تاريخية ومعرفية معينة . إذ حدد أولئك منذ البداية مستوى واحداً وحسب من مستويات اللغة وعدوه المستوى الجدير بالتدوين . وذلك المستوى هو مستوى اللغة الفصحى والتمثل في الشعر منه خاصة . كما حددوا الذين يمكن أن تؤخذ لغتهم حجة تحديداً أخرج مناطق وقبائل كثيرة في الجزيرة العربية من مجال اهتمامهم . ومع ذلك نراهم يقولون إنه فاقم الشيء الكثير من اللغة . وعندما وضعوا قواعد اللغة رفضوا كثيراً من الظواهر التي لا تتماشى مع تلك القواعد التي وضعوها . واختتم هذا المنهج بأن وضعوا حداً زمنياً لا يمكن الاحتجاج بكلام من جاء بعده .

وهذا التحديد ربما كان وراءه أسباب متعددة : فقد يكون من بينها أنهم كانوا مهتمين فقط باللغة الفصحى التي تماثل اللغة التي أنزل بها القرآن الكريم وذلك لأغراض عملية ، إذ لا يمكن لهم

أن يقعدوا لكل ما يسمعون وهو ما يتطلب زمناً طويلاً ودراسات مفصلة حتى يتبينوا المستويات المتعددة للغة واللهجات المختلفة فيها .
ويضاف إلى ذلك ، عدم وجود الوسائل التي تمكن من العمل الميداني المستقصي ؛ فعلى الرغم مما يقال عن خروج بعض اللغويين إلى بوادي الجزيرة العربية ، فإن تاريخ النشاط اللغوي يوحى بأن أغلب ما سجل من كلام العرب كان في مدينتي البصرة والكوفة اللتين كان يرد عليهما الرواة أنفسهم .

كما أن دراسة المصادر الأولية تبين أن أكثر جامعي اللغة كانوا يسجلون المواد اللغوية نفسها ، ويتضح ذلك من تكرار الأخبار والروايات والمواضيع اللغوية في أكثر من مصدر .

وقد أدى وقف الاحتجاج بعد الفترة المبكرة من تأريخ الإسلام إلى إخراج أكثر مراحل اللغة العربية ازدهاراً في العصر العباسي عندما أصبحت لغة العلم والحضارة . ويكفي أن نعرف أن المعاجم العربية لا تظهر فيها آلاف الكلمات التي جدت في ذلك العصر ؛ بل إنها لا تحوي كلمات أساسية أسهمت بها الحضارة العربية في تأريخ الإنسانية ، وذلك مثل كلمة الصفر وكلمة الجبر .

وقد نشأ مع مرور الوقت نشاط لغوي كان قصده التشريع لما ينبغي أو لا ينبغي استعماله . وصنفت الكلمات والأساليب إلى درجات من حيث الفصاحة وجواز الاستعمال . لكن هذه الطريقة في التصنيف تعتمد على أساس واهٍ إذ إنها تقوم على فرضية أن اللغة أحصيت واستقصيت ، أو أن الاحتجاج لا يجوز بكلام فئة من الناس . ومن الجدير بالذكر أننا نجد هذا النوع من النشاط اللغوي عند الأمم كلها ، وعندما يستقصى أمره نجد أنه مخطيء في كثير مما يصل إليه .

وتكفي الإشارة هنا إلى ما يقوله اللسانيون الغربيون عن هذا النشاط في لغاتهم إذ يرون أن هناك كثيراً مما يمنع استعماله وهو سائد في كلام الناس قديماً وحديثاً وحتى في كلام هؤلاء المنادين بما يسمى تنقية اللغة⁽¹⁸⁶⁾.

وفي العربية أيضاً يمكن أن يدل على خلل هذه الفرضية بأمثلة لا حصر لها . وسأورد مثالين فقط للتدليل على ذلك : (1) ورد في المزهر أن أفعل التفضيل من " خير " (أي أخير) لغة رديئة. غير أن هذه الكلمة وردت في حديث نبوي في صحيح البخاري هي وكلمة " خير " كليهما . وهذا يشير إلى أن استعمال أي واحدة منهما جائز⁽¹⁸⁷⁾ ، (2) يستعمل الفعل (حلق) متعدياً لمفعول غير إنسان : فيجوز أن يقال : حلق زيد شعره ، وحلق زيد شعر فلان ، وحلق زيد ضأنه ؛ ولكنه لم يرد في المعاجم كلها جواز استعمال : حلق زيداً خالداً ، مثلاً . وقد اعترض مرة أحد الزملاء على استعمالي هذا الفعل متعدياً للإنسان بهذه الحجة . وعندما رجعت إلى تاريخ الطبري عند كلامه عن غزوة الحديبية وجدت أن هذا الفعل عدي إلى الإنسان في جملة هي : " فدعا (أي الرسول صلى الله عليه وسلم) حالقه فحلقه "⁽¹⁸⁸⁾ ، أي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حلقه إنسان آخر . كما وجدت هذا الاستعمال عند الطبري في مواضع أخر⁽¹⁸⁹⁾ . ووجدت هذا الاستعمال في كتاب الأغاني أيضاً : " وكان قد ضربه وحلقه "⁽¹⁹⁰⁾ ، وكذلك في الأغاني : " عزل الوليد بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن عن الأردن وضربه وحلقه "⁽¹⁹¹⁾ ، وورد في كتاب العين قوله في تفسير عبارة " عقرى حلقي " ، أنه قال : " واشتقاقه من أنها تحلق قومها وتعقرهم "⁽¹⁹²⁾ ، وهو توسع في

الاستعمال يتجاوز تعدية الفعل إلى المفعول الإنسان في شيء يتعلق بما ينصرف له الفعل أساساً .

إن منع هذين الإستعمالين مثلاً لم يأت إلا من سيطرة فكرة أنه بالإمكان أن نشرع للغة وأن نعين للناس ما يمكن أن يقولوه وما لا يمكن أن يقولوه . وتجدر الإشارة إلى أن هذا التشريع لا يأخذ في الاعتبار أن كثيراً مما يمنع يمكن أن نجده في قواميس اللغة التي تعطي سلطة كبرى . فقد تتبع محمد خليفة التونسي ، مثلاً ، كثيراً مما ورد عدم إجازته ووجد أن تلك الأمثلة الممنوعة يمكن أن نجدها في أمثلة تعود إلى عصور الاحتجاج⁽¹⁹³⁾ .

كما أن القواميس نفسها مع هذه السلطة الكبرى التي تعطي لها لا تحوي كل الكلام العربي . وقد سبق أن رأينا أن استعمال الفعل " حلق " متعدياً للمفعول الإنسان لا يرد في أي قاموس عربي مع أنه موجود في أمثلة تعود إلى عصور الاحتجاج . وهذه السلطة التي تعطي للقواميس لا تأخذ في الاعتبار أن الذي جمعها أناس مثلنا قد يند عنهم كثير من الألفاظ . فالاحتجاج بالقواميس لذلك ليس حجة في بعض الأحيان .

وقد أدى هذا المنع في تاريخ اللغة العربية إلى التضيق على مستعملي اللغة مما حد من الإبداع والارتجال . ويجب أن نتذكر أن القرآن الكريم أتى بكلمات كثيرة لم تكن اللغة العربية تعهدها . كما غير من معاني كثير من الكلمات المستعملة ، بل لقد ورد في القرآن الكريم أمثلة كثيرة تخرج على القياس الصرفي مثل كلمة " استحوذ " التي كان يجب أن تكون قياساً " استحاذ "⁽¹⁹⁴⁾ . فلنا به إذن قدوة حسنة .

ولذلك فإننا إذا نظرنا إلى تاريخ اللغة العربية فإننا نجد أن القواعد التي أرساها اللغويون وجامعو اللغة الأقدمون ملزمة للنموذج الذي درسوه فقط ، أما نحن خاصة في هذا العصر فإنه يجب علينا ألاّ تقيّد حريتنا الحدود والمقاييس التي وضعوها ؛ بل علينا الآن أن نعيد النظر في كثير مما عملوه ، وربما قادنا ذلك إلى صياغة النحو العربي في صورة تكون أكثر ملاءمة لطبيعة اللغة العربية .

إن التحيز للقديم كان وراء كثير من النشاطات اللغوية في القديم مع أن هذا التحيز مثله مثل غيره من التحيزات لا يسنده دليل مقنع .

التعليقات

- 1) Peter Farb, Word play (New York : Bantam Books 1973), pp. 354 357.
- 2) Noam Chomsky, Knowledge of language : its origion structure, and use. (New York : praeger, 1986), PP. xxvii-xxviii, pp. 276 287.
- 3) Maurice Olender, The languages of Paradise : Race, Religion, and philosophy in the 19th century, Translated by Arthur Goldhammer (Cambridge, London : Harvard University press, (1992).

(4) المرجع نفسه ، ص 33 .

(5) المرجع نفسه ، ص 83 .

(6) المرجع نفسه ، ص ص 84 85 .

(7) المرجع نفسه ، ص 98 .

(8) المرجع نفسه ، ص ص 115 135 .

- 9) Ferdinand de Saussure, Course in General Linguistics, Translated by Wade Baskin (New York : Fontana/collins, 1959), p. 199.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية عدة ترجمات من أحسنها الترجمة التي قام بها صالح القرماضي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة ، ونشرها في تونس الدار العربية للكتاب ، 1985م.

(10) المرجع نفسه ، ص 191 .

- 11) John Lyons, language and linguistics : An Introduction (Cambridge : Cambridge University press, 1981), p. 305.
- 12) المرجع نفسه ، ص 306 .
- 13) المرجع نفسه ، ص 307 .
- 14) Michael Devitt and Kim Sterelny, Language and reality : An Introduction to the philosophy of language (Oxford : Basil Black well, 1987), pp. 173 182.
- 15) R.A. Hudson, Sociolinguistics (Cambridge : Cambridge University, Press, 1980), pp. 103 105.
- 16) المرجع السابق ، ص 21 .
- 17) Keith Allan, Linguistic meaning, (London and New York : Rouledge and Kegan Paul, 1986), Vol. 1, p, 123.
- 18) Herbert H. Clark and k Eve V. Clark, psychology and language : An Introduction to psycholinguistics (New York : Harcourt Brace Javanovich, Inc. 1977), pp. 554 555.
- 19) Robert A. Hall, Jr., leave your Language Alone ! (Ithaca, N. Y : linguistica 1950), pp. 240 249.
- 20) J. K. Chambers and Peter Trudgill, Dialectology (Cambridge : Cambridge University press, 1980), p. 103.
- 21) انظر في ذلك : جون ليونز ، المرجع السابق ، ص ص 24 27 و 266 281 ؛ وكذلك ريتشارد هيدسون ، المرجع السابق ، ص 191 230 ؛ وكذلك، روبرت هول ، المرجع السابق .
- 22) سورة البقرة ، الآية 31 .
- 23) أبو الفتح عثمان بن جني ، الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار (بيروت : دار الهدى للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، د.ت) ج 1 ، ص 41 .
- 24) المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 44 47 .
- 25) المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 47 .
- 26) المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 47 .
- 27) عبدالرحمن جلال الدين السيوطي ، المزهري في علوم اللغة وأنواعها ، شرحه وضبطه وصححه وعسّون موضوعاته وعلق حواشيه ، محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، د.ت)، ج 1 ، ص 28 .
- 28) المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 30 .
- 29) المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 30 .

- 30) المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 34 .
- 31) المرجع نفسه ، ج 1 ، ص ص 34 - 35 .
- 32) محمد ناصر الدين الألباني ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة (الرياض : مكتبة المعارف ، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة ، 1412هـ - 1992م) ، ج 1 ، ص 679 .
- 33) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة : مكتبة الخانجي بمصر ، الطبعة الرابعة ، 1395هـ - 1975م) ، ج 3 ، ص 290 .
- 34) محمد ناصر الدين الألباني ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 293 .
- 35) المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 298 .
- 36) المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 299 .
- 37) جمال الدين بن منظور ، لسان العرب ، تحقيق عبدالله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي (القاهرة : دار المعارف ، د.ت) ، ج 1 ، ص 11 .
- 38) السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج (الكويت : مطبعة الحكومة ، 1385هـ - 1965م) ، ج 1 ، ص 13 .
- 39) أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري النحوي ، كتاب إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل ، تحقيق محيي الدين عبدالرحمن رمضان (دمشق : مجمع اللغة العربية بدمشق / 1390هـ - 1971م) ، ج 1 ، ص 21 .
- 40) ابن منظور ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 11 .
- 41) المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 13 .
- 42) علي بن إسماعيل بن سيده ، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ، تحقيق مصطفى السقا وحسين نصار (القاهرة : شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، 1377هـ - 1958م) ، ج 1 ، ص 3 .
- 43) أبو الفتح عثمان بن جني ، المختص في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، تحقيق علي النجدي ناصف وعبدالحليم النجار وعبدالفتاح إسماعيل شلبي ، أعده للطبعة الثانية وقدم لها محمد بشير الأدلبي (اسطامبول : دار سركين للطباعة والنشر ، 1406هـ - 1986م) ، ج 1 ، ص 31 .
- 44) أبو بكر محمد الطيب الباقلاني ، إعجاز القرآن ، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر (بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية ، الطبعة الأولى ، 1406هـ - 1986م) ، ص 32 .
- 45) المرجع نفسه ، ج 1 ، ص ص 54 - 55 .

التحيز اللغوي - مظاهره وأسبابه

- 46 المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 138 .
- 47 الإمام المظلي محمد بن إدريس الشافعي ، الرسالة ، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة : 1358 هـ - 1939م) ، ص 42 .
- 48 السيوطي ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 64 .
- 49 الشافعي ، المرجع السابق ، ص 46 .
- 50 الجاحظ ، المرجع السابق ، ج 3 ، ص 29 .
- 51 الإمام أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني النحوي ، كتاب دلائل الإعجاز ، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر ، (القاهرة : مكتبة الخانجي ، 1404 هـ - 1984م) ، ص 577 .
- 52 المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 575 .
- 53 أبو حيان التوحيدي ، كتاب الإمتاع والمؤانسة ، صححه وضبطه وشرح غريبه ، أحمد أمين وأحمد الزين ، (بيروت : دار مكتبة الحياة ، د.ت) ج 1 ، ص ص 77 - 78 .
- 54 أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ، لحن العامة ، تحقيق عبدالعزيز مطر ، (القاهرة : دار المعارف ، 1981م) ، ص 34 .
- 55 أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، (القاهرة ، مكتبة الخانجي ، 1384 هـ - 1964م) ، ج ع ، ص 237 .
- 56 أبو عثمان سعيد بن محمد المعافري السرقطي ، كتاب الأفعال ، تحقيق حسين محمد شرف ومحمد مهدي علام ، (القاهرة : الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، 1395 هـ - 1975 م) ، ج 1 ، ص 51 .
- 57 أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي ، ديوان الأدب ، تحقيق أحمد مختار عمر وإبراهيم أنيس ، (القاهرة : الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، 1394 هـ - 1974م) ، ج 1 ، ص ص 71 - 72 .
- 58 أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، جامع البيان عن تأويل القرآن ، (القاهرة : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الثالثة ، 1388 هـ - 1968م) ، ج 1 ، ص 7 .
- 59 محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي اليربوعي ، تفسير البحر المحيط ، (بيروت : دار الفكر ، الطبعة الثانية ، 1398 هـ - 1978م) ، ج 5 ، ص 405 .
- 60 وصف القرآن الكريم بأنه مبین : في سورة المائدة ، الآية (15) ؛ وفي سورة الحجر ، الآية (1) ؛ وفي سورة النحل ، الآية (103) ؛ وفي سورة الشعراء ، الآية (195) ؛ وفي سورة النمل ، الآية (1) ؛ وفي سورة يس ، الآية (69) ؛ وفي سورة النساء ، الآية (174) ، وفي سورة

حمزة بن قبلان المزيني

يوسف ، الآية (1)؛ ولي سورة الشعراء ، الآية (2)؛ ولي سورة القصص ، الآية (2)؛ ولي سورة الزخرف ، الآية (2)؛ ولي سورة الدخان ، الآية (2) ؛ ولي سورة آل عمران ، الآية (138) .

كما ووصف بأنه " قرآن عربي " : لي سورة يوسف ؛ الآية (2)؛ ولي سورة طه ، الآية (113)؛ ولي سورة الزمر ، الآية (28)؛ ولي سورة فصلت ، الآية (3)؛ ولي سورة الشورى، الآية (7)؛ ولي سورة الزخرف ، الآية (3) .

ووصف بأنه " لسان عربي " لي سورة الأحقاف ، الآية (12) .

ووصف بأنه " حكم عربي " لي سورة الرعد ، الآية (37) .

ووصف بأنه " عربي مبین " لي سورة النحل ، الآية (103)؛ ولي سورة الشعراء ، الآية (195) .

- 61 سورة يوسف ، الآية (1) .
- 62 الطبري ، المرجع السابق ، ج12 ، ص 149 .
- 63 سورة يوسف ، الآية (2) .
- 64 الطبري ، المرجع نفسه ، ج12 ، ص 149 .
- 65 سورة الشعراء ، الآية (195) .
- 66 الطبري ، المرجع نفسه ، ج19 ، ص 112 .
- 67 سورة النحل ، الآية (103) .
- 68 أبو عبدالله محمد الأنصاري القرطبي ، تفسير القرطبي ، (القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية، 1359هـ - 1940م)، ج10 ، ص 179 .
- 69 سورة يوسف ، الآية (2) .
- 70 القرطبي ، المرجع نفسه ، ج10 ، ص 179 .
- 71 سورة يوسف ، الآية (1) .
- 72 ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق عبدالعزيز غنيم ومحمد عاشور ومحمد البنا (القاهرة : سلسلة كتاب الشعب ، 1390هـ - 1971م)، ج4 ، ص 294 .
- 73 سورة الزخرف ، الآية (2) .
- 74 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، (القاهرة : مطبعة الباي الحلبي وشركاه ، الطبعة الأولى ، د.ت)، ج25 ، ص ص 17 18 .
- 75 سورة آل عمران ، الآية (103) .

التحيز اللغوي - مظاهره وأسبابه

- 76 سورة الزخرف ، الآية (44) .
- 77 سورة الأنعام ، الآية (124) .
- 78 إسماعيل بن محمد العجلوني ، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، صححه أحمد القلاص ، (حلب : مكتبة التراث الإسلامي ، د.ت) ، ج 1 ، ص 232 .
- 79 الألباني ، المرجع السابق ، ج 4 ، ص 185 .
- 80 الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، ج 4 ، ص 117 ، ص 238 ؛ ابن منظور ، اللسان ، ج 1 ، ص 395 ؛ أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، مجالس ثعلب ، شرح وتحقيق عبدالسلام محمد هارون ، (القاهرة : دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، 1969م) ، ج 1 ، ص 11 . بلفظ " أنا أفصح العرب ، تربيت في أخوالي بني سعد ، بيد أبي من قريش) .
- 81 أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري ، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص ص 253 254 .
- 82 السيوطي ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص ص 209 210 .
- 83 السيوطي ، المرجع نفسه ، ج 2 ، ص 483 .
- 84 السيوطي ، المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 211 ؛ ولي الزهر ، ج 2 ، ص 483 يقول أبو عمرو : " أفصح العرب عليا تميم وسفلى قيس " .
- 85 أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ، كتاب العين ، تحقيق مهدي المخزومي السامرائي ، (بغداد : دار الرشيد للنشر ، 1982م) ، ج 1 ، ص 169 .
- 86 السيوطي ، المرجع السابق ، ج 2 ، ص 483 .
- 87 السيوطي ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 211 .
- 88 السيوطي ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 211 .
- 89 السيوطي ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 212 .
- 90 أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، الكامل ، حققه وعلق عليه وصنع فهرسه ، محمد أحمد السدائي ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، 1406هـ - 1986م) ، ج 2 ، ص 765 .
- 91 أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، الفائق في غريب الحديث ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، (بيروت : دار المعرفة ، الطبعة الثانية ، د.ب) ، ج 3 ، ص 313 .
- 92 الجاحظ ، المرجع السابق ، ج 3 ، ص 212 .

حمزة بن قبلان المزيني

- 93) محمد بن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، قرأه وشرحه أبو فهر محمود أحمد شاكر ، (القاهرة : مطبعة المدني ، 1400هـ - 1980م) ، ج 1 ، ص 61 .
- 94) وردت هذه الرواية في تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، وفي الطبعة الأوروبية بعناية وليم رايت ، وفي بعثة الأمل لسيد المرصفي ، وفي شرح المفصل لابن يعيش ، وفي خزانة الأدب : ويقول ابن يعيش في شرح المفصل : " وصف هذا الجرمي قومه بالفصاحة وعدم اللكنة والتباعد عن هذه اللغات " ، يعيش بن علي بن يعيش النحوي ، شرح المفصل ، (بيروت : عالم الكتب ، القاهرة : مكتبة المدني ، د.ت) ، ج 9 ، ص 49 .
- 95) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج 1 ، ص 243 .
- 96) أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين ، كتاب الأغاني ، (بيروت ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، مصور عن طبعة دار الكتب ، د.ت (طبعة دار الكتب ، 1383هـ - 1963م) ، ج 8 ، ص 39 41 .
- 97) الجرجاني ، المرجع السابق ، ص 399 .
- 98) الجرجاني ، المرجع نفسه ، ص ص 458 459 .
- 99) أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي البصري ، كتاب النقاظ : نقاظ جرير والفرزدق ، باعتناء المستشرق الإنجليزي بيفان (لندن : مطبعة بريل ، 1905م) ، ج 2 ، ص 89 .
- 100) أبو الفرج الأصفهاني ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 407 .
- 101) أبو عبيدة ، المرجع السابق ، ج 2 ، ص 39 .
- 102) أبو عبيدة ، المرجع السابق ، ج 2 ، ص 40 .
- 103) أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ، الجامع الصحيح ، تحقيق محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبدالباقي وقصي محب الدين الخطيب ، (القاهرة : المكتبة السلفية ، الطبعة الأولى ، 1400هـ-) ، كتاب فضائل القرآن ، ج 3 ، ص ص 337 338 .
- 104) رشدي عليان " القرآن الكريم والأحرف السبعة " ، مجلة المورد ، ج 9 ، العدد الرابع 1401 هـ - 1981م) ، ص ص 17 26 .
- 105) محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري المعروف بابن سعد ، الطبقات الكبرى ، دراسة وتحقيق محمد عبدالقادر عطا ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى الكاملة) ، (1410هـ - 1990م) ، ج 3 ، ص 111 .
- 106) البخاري ، المرجع السابق ، ج 3 ، ص 341 : ج 3 ، ص 34 : ج 3 ، ص ص 44 45 .
- 107) ابن جني ، الخصائص ، ج 3 ، ص ص 30 31 : ج 2 ، ص 8 .
- 108) ابن الأنباري ، كتاب الوقف والابتداء ، ج 1 ، ص ص 39 40 .

التحيز اللغوي - مظاهره وأسبابه

- 109) ابن الأنباري ، المرجع نفسه ، ج 1 ، ص ص 42 43 .
- 110) ابن الأنباري ، المرجع نفسه ، ج 1 ، ص ص 51 52 .
- 111) ابن الأنباري ، المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 14 .
- 112) ابن الأنباري ، المرجع نفسه ، ج 1 ، ص ص 13 61 .
- 113) ابن سلام ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 12 .
- 114) أبو عبيدة ، المرجع السابق ، ج 2 ، ص ص 1025 1026 ، وربما كان المقصود "وقد تعدى الصحاح مباركة الجرب" .
- 115) الباقلائي ، المرجع السابق ، ص 48 .
- 116) ابن جني ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 386 .
- 117) أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي ، طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، (القاهرة : دار المعارف ، الطبعة الثانية ، 1984م) ، ص 39 .
- 118) أبو بكر الزبيدي ، المرجع نفسه ، ص 45 .
- 119) ابن جني ، المرجع السابق ، ج 2 ، ص ص 5 8 .
- 120) ابن سعد ، المرجع السابق ، ج 2 ، ص 16 .
- 121) ابن سعد ، المرجع نفسه ، ج 6 ، ص 162 . وقد درس هذه الفترة المبكرة دراسة جيدة محمد خير الحلواني في كتابه المفصل تاريخ النحو ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى 1399هـ - 1979م) .
- 122) الحلواني ، المرجع نفسه ن ج 1 ، ص 85 .
- 123) أبو بكر الزبيدي ، المرجع السابق ، ص 22 .
- 124) أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ، الاشتقاق ، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ، (القاهرة : مكتبة الخانجي ، 1378هـ - 1958) ، ص 4 .
- 125) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج 3 ، ص ص 5 124 : الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، (القاهرة : شركة ومطبعة البابي الحلبي ، الطبعة الأولى ، 1357هـ) ، ج 1 ، ص ص 74 75 ؛ ج 2 ، ص 245 ؛ ج 2 ، ص 245 ؛ ج 3 ، ص ص 212 214 : الجاحظ رسائل الجاحظ ، ج 1 ، المقدمة : الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، ج 1 ، ص ص 30 31 .
- 126) الجرجاني ، المرجع السابق ، ص ص 575 589 .
- 127) أبو حيان التوحيد ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص ص 70 96 ؛ ج 1 ، ص ص 108 128 .

- (128) ابن جني ، الخصائص ، ج 1 ، ص ص 242 244 .
- (129) الألباني ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 293 ؛ ج 1 ، ص 301 ؛ ج 1 ، ص 512 ؛ ج 1 ، ص 573 ؛ ج 2 ، ص 24 ؛ ج 2 ، ص 46 ؛ ج 2 ، ص 47 ؛ ج 2 ، ص 105 ؛ ج 2 ، ص 157 ؛ ج 2 ، ص 158 ؛ ج 2 ، ص 159 ؛ ج 2 ، ص 161 ؛ ج 2 ، ص 162 ؛ ج 2 ، ص 163 ؛ ج 2 ، ص 201 ؛ ج 3 ، ص 339 ؛ ج 3 ، ص 340 ؛ ج 3 ، ص 536 ؛ ج 4 ، ص 317 ، وغير ذلك .
- (130) الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، ج 4 ، ص ص 114 128 .
- (131) الجاحظ ، المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 213 ؛ ج 3 ، ص 46 .
- (132) الألباني ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 512 ؛ ج 1 ، ص 573 ؛ ج 2 ، ص 105 ؛ ج 2 ، ص 201 ؛ ج 3 ، ص 339 ؛ ج 3 ، ص 536 ؛ ج 4 ، ص 94 ؛ ج 4 ، ص 147 ؛ ج 4 ، ص 185 ،
- (133) ابن سلام ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 4 .
- (134) ابن سلام ، المرجع نفسه ، ج 1 ، ص ص 7 - 8 .
- (135) ابن سلام ، المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 46 .
- (136) ابن سلام ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 48 .
- (137) ابن سلام ، المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 49 .
- (138) ابن سلام ، المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 61 .
- (139) الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، ج 1 ، ص 32 .
- (140) الجاحظ ، المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 37 .
- (141) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج 1 ، ص 52 .
- (142) الجاحظ ، المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 53 .
- (143) الجاحظ ، المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 54 .
- (144) الجاحظ ، المرجع نفسه ، ج 1 ، ص ص 96 - 97 .
- (145) الجاحظ ، المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 145 .
- (146) أبو الفرج الأصفهاني ، المرجع السابق ، ج 9 ، ص 109 .
- (147) أبو محمد علي بن حزم الأندلسي ، الإحكام في أصول الأحكام ، (القاهرة : مطبعة الإمام ، د.ت.) ، ج 1 ، ص 32 ، أشكر الزميل الدكتور عبدالله الغدامي الذي لفت نظري إلى هذا النص .

التحيز اللغوي - مظاهره وأسبابه

148) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق المستشرق الفرنسي أ.م. كاترمير ، (باريس ، 1858م) صورة عنها ، بيروت : مكتبة لبنان ، د.ت ، ج 3 ، ص 300 .

149) ابن خلدون ، المرجع نفسه ، ج 3 ، ص ص 301 302 .

150) الأب انستانس ماري الكرمل ، نشوء اللغة العربية ونموها واكتشافها ، (القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، د.ت (1938)، ص 1 .

151) الكرمل ، المرجع نفسه ، ص 165 ، ص 156 .

152) المقدمة Mohammed Ahmad Mazhar, Arabic The source of All Languages, (Nen delenstien : Kraus Thompson Organization limited Repernt). المقدمة .

153) Mazhar, p.i.

154) Mazhar, pp. iii.

155) Mazhar, p.94.

156) T.A. Ismail, Classical Arabic as the Ancestor of Indo-European Languages and Origin of speech (Cairo : Al-Ahram press, 1989).

157) إسماعيل ، المرجع نفسه ، التلخيص العربي للكتاب .

158) حمزة بن قبالان الزيني ، مراجعات لسانية ، (الرياض : النادي الأدبي ، 1410هـ) ، ص ص 119 157 .

159) لويس عوض ، مقدمة في فقه اللغة العربية ، (القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، 1980م) .

160) Naim, Hazim onat, Araicanin Turk Diliyla Kurulusu-1 (T.D.K. Istanbul, 1994).

" تأسيس اللغة العربية على جذور تركية " ، نشر المجمع اللغوي التركي ، اسطنبول ، 1944 ؛ أشكر الزميل الدكتور سعد الشامان الذي لفت نظري إلى هذا الكتاب وترجم لي ملخصاً لآرائه .

161) سمر روعي الفصيل ، المشكلة اللغوية العربية ، شؤون عربية ، 57 ، (آذار / مارس 1989م شعبان 1409هـ) ، ص 162 .

162) الفصيل ، المرجع نفسه ، ص 163 .

163) الفصيل ، المرجع نفسه ، ص 163 .

164) الفصيل ، المرجع نفسه ، ص 163 .

165) الفصيل ، المرجع نفسه ، ص 167 .

166) محمد المنجي الصيادي ، التعريب وتنسيقه في الوطن العربي ، (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الثانية 1982م) ، ص 390 .

- 167) الصيادي ، المرجع نفسه ، ص 396 .
- 168) الصيادي ، المرجع نفسه ، ص ص 554 573 .
- 169) أحمد الحللو " حول واقعنا اللغوي في الماضي والحاضر " المستقبل العربي ، السنة العاشرة ، العدد 106 ، (كانون الأول " ديسمبر " 1987م) ، ص ص 67 85 .
- 170) الحممو ، المرجع نفسه ، ص 70 .
- 171) الحممو ، المرجع نفسه ، ص 71 .
- 172) الحممو ، المرجع نفسه ، ص 75 .
- 174) Raphael Patai, The Arab mind (New York ; Charles Scribners Sons, 1979) pp. 41 42 .
- 175) منصور الحازمي ، مواقف أدبية ، (الرياض ، دار الصاي 1410هـ) . ص ص 187 193 ؛ وعبدالقادر حسين ياسين " الاغتيال الجماعي للشخصية العربية " مجلة كلية الملك خالد العسكرية ، العدد 38 صيف 1413هـ) ، ص ص 112 114 ؛ ويذكر عبدالقادر حسين ياسين أنه كتب عن هذا الكتاب في الملحق الثقافي للمجلة البريطانية The New Stateman .
- 176) محمد عابد الجابر ، تكوين العقل العربي ، (بيروت : دار الطليعة ، الطبعة الأولى ، 1984م) ، ص 76 .
- 177) محمد عابد الجابري ، المرجع نفسه ، ص 77 .
- 178) محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية (الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى ، 1986م) ، ص 11 .
- 179) محمد عابد الجابري ، المرجع نفسه ، ص 46 .
- 180) محمد عابد الجابري ، المرجع نفسه ، ص 191 .
- 181) محمد عابد الجابري ، المرجع نفسه ، ص 245 .
- 182) محمد عابد الجابري ، المرجع نفسه ، ص ص 245 - 246 .
- 183) محمد عابد الجابري ، المرجع نفسه ، ص 247 .
- 184) David Justic, The Semantic of Forms In Arabic, In the mirror of European Languages (Amsterdam / philadelphia, 1987).
- 185) نعام تشومسكي ، اللغة ومشكلات المعرفة ، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني ، (الدار البيضاء : دار توبقال للنشر ، 1990م) .

التحيز اللغوي - مظاهره وأسبابه

- 186) جون ليونز " مدخل إلى اللغة واللسانيات "، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، م14 (1)، ص ص 212 219 .
- 187) محمد بن إسماعيل البخاري، المرجع السابق، ج2، ص 508 .
- 188) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق J. Barth وآخرين، مصورة مكتبة غياط، (بيروت : مكتبة غياط / 1965م)، القسم الأول، ج3، ص 1550، كما ورد هذا الاستعمال في حديث أورده البخاري ج2 ص 283 نصه : " ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك (الصحابه) قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يخلق بعضاً " .
- 189) الطبري، المرجع السابق، القسم الثاني، ج9، ص 1455 : الطبري، المرجع نفسه، القسم الثاني، ج9، ص 1499 .
- 190) أبو الفرج الأصفهاني، المرجع السابق، ج7، ص 82 .
- 191) أبو الفرج الأصفهاني، المرجع نفسه، ج7، ص 313 .
- 192) الفراهيدي، المرجع السابق، ج1، ص 152 .
- 193) محمد خليفة التونسي، أضواء على لغتنا السمعية، (الكويت : مطبعة الحكومة) كتاب العربي، الكتاب التاسع، 15 أكتوبر 1985م .
- 194) أبو الفتح عثمان بن جني النحوي، المنصف : شرح الإمام أبي الفتح عثمان بن جني النحوي لكتاب التصريف للإمام أبي عثمان المازني النحوي البصري، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبدالله أمين، (القاهرة : شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى 1373 هـ - 1954م)، ج1، ص ص 276 279 .

